من بلاغة التعبير النبوي في أحاديث الإعجاز العلمي

الدكتور

محمد شاكر محمد صهوان

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر

The Rhetoric of The Prophetic Expression in The Scientific Inimitability of Hadiths "Prophet's Traditions"

Mohamed Shaker
Rhetoric and Criticism **Department,** *Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Egypt.*
E-mail : mohamedsahwan.419@azhar.edu.com

Abstract

This research aimed to identify aspects of the prophetic rhetoric in Scientific Inimitability Hadiths "Prophet's Traditions", including the accuracy of expression and the soundness of structure through identifying some of the scientific signs included in the Prophet's words thousands of years ago and revealed by science and still revealing them, making these signs of the most prominent evidence on the prophet's faithfulness. These signs are undoubtedly a revelation from Allah.

The research handled some of the prophetic Hadiths that included scientific signs related to the manifestations of nature, and others related to preventive medicine in order to identify the characteristics and aesthetics of the Prophet's expressions as well as their accuracy; showing that they are completely compatible with what has been proved by peremptory evidences of scientific facts. The researcher concluded that the prophetic expressions have scientifically and accurately formulated these facts in a way characterized by comprehensiveness and inclusiveness in its implications, with a miraculous briefing, so that you find scholars use words identical in meaning and structure to what is stated in the words of the Prophet, and why not; as the prophet's words are infallible and supporte

Keywords: *The Rhetoric - Expression- theScientific Inimitability - Hadiths*

من بلاغة التعبير النبوي في أحاديث الإعجاز العلمي

محمد شاكر

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

الإيميل: mohamedsahwan.419@azhar.edu.com

الملخص:

فقد كان هذا البحث محاولة للتعرف على جانب من جوانب البلاغة النبوية في أحاديث الإعجاز العلمي؛ حيث دقة التعبير وإحكام التركيب، وذلك من خلال الوقوف على بعض الإشارات العلمية التي حملها البيان النبوي منذ آلاف السنين، وكشف عنها العلم وما زال، مما يجعل هذه الإشارات من أبرز الدلائل على صدقه ﷺ، ويقطع بأنه لا يمكن أن يكون لها مصدر غير وحي السماء، وقد وقف البحث مع بعض الأحاديث النبوية التي تضمنت إشارات علمية متعلقة بمظاهر الطبيعة، وأخرى متعلقة بالطب الوقائي بغية التعرف على خصائص التعبيرات النبوية وجمالها ودقة اختيارها؛ ليجد أنها قد توافقت تمام التوافق مع ما أثبته القطعي الثابت من الحقائق العلمية؛ حيث وجد الباحث أن التعبيرات النبوية قد صاغت تلك الحقائق في دقة علمية متناهية اتسمت بالشمولية والإحاطة في دلالتها، مع إيجاز معجز، حتى إنك لتجد العلماء يستعملون عبارات مطابقة بمعناها ومبناها لما ورد في البيان النبوي الشريف، ولمَ لا، وهو كلام من لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد.

الكلمات المفتاحية: بلاغة – التعبير – الحديث الشريف – الإعجاز العلمي

المقدمة

الحمد لله العليّ ذي السلطان، خالق الإنسان وواهب البيان، والصلاة والسلام التّامّان على سيّد ولد عدنان، خاتم النبيّين وإمام المرسلين سيّدنا محمّد ﷺ أفصح الناطقين وأبلغ المتكلّمين، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وحملة راية العلم والعرفان، وبعد:

فإن السنة النبوية المشرفة تضمنت ألوانا من مظاهر الإعجاز العلمي و انطوت على مكنونات وإشارات علمية أثبت العلم بعضها بعد رحلة طويلة من البحث والدراسة، وباستخدام أدق الآلات التي لم تُصنع إلا في عصر الثورة الصناعية الحاضرة، وما زال يكشف عن بعضها الآخر تباعا، وهذه الإشارات والحقائق تعد من أبرز الدلائل على أن سيدنا محمدًا ﷺ رسول الله وخاتم النبيين والمرسلين؛ لأنها بما اشتملت عليه من سبق علمي منذ ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدائية لا تملك أدوات العلم والمعرفة الحديثة، بل كانَ يَغْلِبُ على تفكيرها الأسطورة والخرافة، يقطع الطريق أمام المشككين في رسالته، و يُثبت بما لا يدع مجالاً للشكِّ أن المصدر الوحيد الذي اصطفى منه سيدنا محمد رسول الله ﷺ تعاليمه هو الله جلّ في علاه، وإذا كانت قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية من القضايا التي شغلت فكر عدد كبير من العلماء على مختلف مناحيهم ومجالاتهم، واستأثرت اهتمام الباحثين فحرصوا على تتبع أحاديث النبي ﷺ التي اشتملت على إعجاز علمي، واستعانوا بما توصل إليه العلم الحديث لدراسة تلك الأحاديث وصنفوا فيها أبحاث ومؤلفات، أردت أن أوظف علم البلاغة من خلال هذا البحث في الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز في هذه القضية؛ لأنه وإن كان من المعلوم أن النبي قد أوتى جوامع الكلم، وبيانه الشريف قد بلغ درجة عالية في البلاغة والفصاحة بحيث لا يدانيه كلام بشري، وكانت أبلغيّة كلامه ﷺ

أمرا منتهى منه في أي مجال قد تحدث فيه، بقيت مهمّة الوقوف على خصائص التعبيريات النبوية المعجزة في وصف تلك الإشارات العلمية للتعرف على جانب من جوانب بلاغته والكشف عن أفانين براعته، وقوفا يجعل إيماننا قائما على محجّة بيضاء ليلها كنهارها، وتحليلا يطلعنا على نفائس أسلوبه وروائع تعبيراته كاشفا لنا عن بعض وجوه إعجازها وما اشتملت عليه من تحد علمي معجز يكشف عنه وجه التطابق بين ما عبر به النبي ﷺ في بيانه وحديثه عن بعض صور ومظاهر الإعجاز العلمي بأعذب الألفاظ وأدق الجمل وأبهى التراكيب، وبين ما أعلنه العلم الحديث من خلال الأبحاث العلمية دون أن نُحمّل ألفاظ البيان النبوي الشريف غير ما تحتمله من معان من خلال فهم النص النبوي وفق معطيات اللغة وأدواتها وسياق النص ودلالاته...، ثم الوقوف على الحقيقة العلمية التي أثبتها العلم بشكل قطعي من مظانها ومصادرها العلمية الموثوق فيها، ثم الربط بينهما لإظهار التوافق المعجز بين تلك الحقائق العلمية وبين ما ورد في البيان النبوي الشريف.

ومما يجدر الإشارة إليه أن البحث لن يجعل من العلم حَكَمًا على صدق ما ورد في البيان النبوي الشريف، ولن يجعل البيان النبوي تابعا للعلم، بل سيكون محاولة للاستفادة مما توصل إليه العلم الحديث من معارف تساعدنا على فهم بعض الإشارات والعبارات التي وردت في زمن لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها، لتثبيتها في قلب المؤمن لا من باب إثباتها.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة و تمهيد و مبحثين:

أما التمهيد: فقد تناولت فيه الإعجاز العلمي تعريفه،وعلاقته بعلم البلاغة.

وأما المبحث الأول: فقد جاء بعنوان: من بلاغة التعبير النبوي في مظاهر الطبيعة.

وقد تناولت فيه ستة أحاديث وردت فيها إشارات علمية تتناول عددا من مظاهر الطبيعة.

وأما المبحث الثاني: فقد جاء بعنوان: من بلاغة التعبير النبوي في أحاديث الطب الوقائي.

وقد تناولت فيه أربعة أحاديث وردت فيها إشارات علمية تناولت أمورا تخص الطب الوقائي بمفهومه الحديث.

ثم شفعت بحثي **بخاتمة** رصدت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات، وتلاها ثبت بأهم المصادر والمراجع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلَّ اللهم وسلَّمَ وبارك على أشرف الخلق وأسعدهم سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

دكتور
محمد شاكر محمد صهوان
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية
بإتاي البارود

التمهيد

تعريف الإعجاز العلمي:

تعددت التعريفات لمصطلح الإعجاز العلمي منها:

"هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه – سبحانه وتعالى–، وهو باب من أبواب الإعجاز الغيبي"(١).

بين البلاغة والإعجاز العلمي.

من التعريف السابق لمصطلح الإعجاز العلمي يتبين أن مادة البحث وهي الأحاديث التي اشتملت على إشارات تحمل في طيها إعجاز علمي تمثل نوعا من أنواع الحقائق العلمية التي يثبتها العلم التجريبي وهذا الأمر يجعل سؤالا يطرق الذهن وهو: إذا كان البحث قائما على الأحاديث النبوية التي تضمنت إشارات وثوابت علمية، فما هي علاقة الدراسات البلاغية بتلك الإشارات التي ستكون صياغتها بلغة علمية دقيقة مباشرة؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: إن من الحقائق المسلم بها أن كل ما نطق به النبي ﷺ يعد من أبلغ الكلام وأعلاه، سواء أكان به إشارات وثوابت علمية أم لا، فكلامه ﷺ لا يخلو بحال من الأحوال من المعاني المودوعة بدقة وغور ولطف، والتي تحتاج في استنباطها إلى فهم وتدبر وجدّ ومثابرة، وما مِنْ نَصٍّ من نُصوصِ الحَديثِ النّبَوِيّ إلاّ وفيه ألوانا من البلاغة وضروبا من

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أ.د/ عبد الله بن عبد العزيز: ٢٨، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار جياد للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

البراعة، بالإضافة إلى أن الأسلوب العلمي على اختلاف مجالاته ومراميه لا يخلو من دقائق وأسرار بلاغية؛ فالبلاغة ليست مقصورة على الشعر والنثر الأدبي، وإنما تدخل كل عبارة فيها إتقان وتدقيق، مهما كان المعنى المعبر عنه، ولا أدل على ذلك مما فعله الإمام عبد القاهر وهو يلفت النظر بين الحين والآخر إلى ما ذكره سيبويه في الكتاب من قواعد نحوية جامدة متذوقا عباراته وتراكيبه مقدما كلامه على كلام غيره بحسه البلاغي وتفكيره الناقد(١)، فهو بذلك كما يقول الشيخ أبو موسى معلقا على كلام الإمام عبد القاهر:" يقارن بين العلوم والآداب، ويجعل التفوق في لغة العلماء يضاهي التفوق في لغة الأدباء، وكما يغلب بعض الشعراء على صور من المعاني الأدبية، كذلك يغلب بعض العلماء على صور من المعاني العلمية"(٢)، فإذا كان هذا هو الحال مع كلام سيبويه وغيره ممن لم يرتقوا في البلاغة مرتقا كمرتقى النبي ﷺ فما بالنا فيما ورد على لسان من لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة خير البرية وأفصح العرب؟!، ومن هنا يمكن القول بأن الأحاديث النبوية التي اشتملت على إشارات علمية تعد مجالا خصبا للدراسات البلاغية يكشف فيها النظر البلاغي بالتحليل والتدبر واستصفاء ما فيها من دقائق الفكر، والوقوف على وجوه دلالة المباني عن المعاني، وسياقاتها، ومقتضياتها...؛ إذ إن البلاغة أداة تبين لنا أن الحقائق العلمية الواردة في البيان النبوي قد صيغت في أسلوب بلاغي معجز أتى بكليات العلوم مجتمعة في عبارات وجيزة جامعة، تحيط

---

(١) يراجع أمثلة على ذلك في كتاب دلائل الإعجاز، الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفي: ٤٧١هـ): ٦٠٥، تحقيق الشيخ: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة – الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) مدخل إلى كتابي الإمام عبد القاهر، للدكتور أبي موسى، ٢٥، ٢٦، مطبعة وهبة.

بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها التي قد تتابع في ظهورها جيلاً بعد جيل، لها خصائص تركيبية وضروب تصويرية، تميزت بالدقة المتناهية في اختيار الألفاظ والعبارات المعبر بها عن تلك الحقائق والإشارات العلمية، مما يمكننا أن نطلق عليه بلاغة الاختيار، كما أن هذه الإشارات جاءت متناسقة في سياقاتها في بناء متكامل يشد بعضه بعضا مع مقاصد الهداية الدينية التي وردت في الحديث، دون أن يفزع العقلية البدوية التي عاصرت العهد النبوي، فما ذكرت الحقائق العلمية في الأحاديث النبوية لمجرد السرد العلمي أو لغرض نقل الحقائق العلمية مجردة، وإنما جاءت في سياقات مختلفة ليستدل بها على حقائق أخرى، أو ليتخذ منها بطريق القياس والاستنباط الدليل على حقيقة غيبية، بجانب ما تحمله من إشارات علمية، والدرس البلاغي بدوره يكشف عن مناسبة ورود هذه الحقائق داخل هذا السياق، ويكشف عن التوافق الجلي بين تلك الإشارات وبين ما قرره التعبير النبوي الشريف، وبهذا يمكن القول بأن الدراسات البلاغية طريق من الطرق الموصلة إلى الإعجاز العلمي.

المبحث الأول

من بلاغة التعبير النبوي في مظاهر الطبيعة

المبحث الأول
من بلاغة التعبير النبوي في مظاهر الطبيعة

الحديث الأول:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي مَالِكٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ "، قَالَ: " فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ...)[1].

الإعجاز العلمي في الحديث:

هذا الحديث النبوي الشريف ينطوي على معجزة علمية في قول الرسول الكريم – عليه صلوات الله وسلامه –: (فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ

(١) صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج (المتوفى: ٢٦١ هـ):١/ ١٢٨،كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، حديث رقم (٤٠١) دار الجيل ببيرت، وطبعتها مصورة من الطبعة التركية المطبوعة سنة ١٣٣٤ هـ.

فِي طرْفةِ عَيْنٍ؟)؛ إذ كشف عن حقائق متصلة بالبرق من حيث أطواره وطبيعة كل طور وتحديد سرعته... إلى غير ذلك من الأمور التي سيتعرض لها البحث خلال الوقوف مع التعبير النبوي الشريف، وقد جاء العلم الحديث باكتشافاته ليقرر تلك الحقائق العلمية التي أخبر عنها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، ومن المعلوم أن العالم منذ فترة قصيرة لم يكن يعرف شيئا عن حقيقة البرق، إلا أن النبي ﷺ قد وصف ما يحدث في عملية البرق وصفا دقيقا دون أن يمتزج حديثه الشريف بما انتشر في زمانه من خرافات أساطير.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف:

تحدث النبي ﷺ في هذا الحديث عن يوم القيامة، وصور بعض مشاهده التي منها المرور على الصراط، وكشف عن أحوال الناس وتفاوت سرعاتهم حين مرورهم، وقد تضمن حديثه إشارات اشتملت على بعض الحقائق العلمية التي جاء العلم الحديث مؤكدا إياها، وقد صورت ألفاظ الحديث وعباراته تلك الحقائق تصويرا بديعا سبق الأبحاث العلمية بمدة زمنية طويلة.

ومن يرجع إلى الحديث يجد أن النبي ﷺ رتب الناس حسب سرعة مرورهم على الصراط، فبدأ بأسرعهم ثم الذي يليه..، وبدأ النبي ﷺ في بيان تلك الحقيقة مرتكزًا على الأسلوب الخبري (فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ...) الذي يتوافق مع إعلان هذه الحقائق العلمية وتلك الثوابت اليقينية، واتكأ المصطفى ﷺ على أسلوب التشبيه في قوله: (فيمر أوّلُكُم كالبرق...)، ولعل اختيار النبي للتعبير بالصورة التشبيهية لما تتسم به من قدرة في تقريب المعاني وتوضيح الأفكار، وإفهام المخاطب وإجلاء المراد، فهو يخرج الخفي إلى الجلي والنبي ﷺ يصور لنا حالة غائبة في صورة حالة حاضرة نراها ونعاينها، والملاحظ أن التعبير النبوي الشريف آثر أن يكون المشبه به هنا عنصرا من

عناصر الطبيعة وظاهرة من ظواهر الكون وهذا يجعل المثل فيه زيادة تأكيد ومبالغة في الإيضاح.

وهذا التشبيه يعد من التشبيه المركب؛ حيث شبه حال أول المارين على الصراط في سرعة مرورهم، وضياء وجوههم، بعملية البرق كمًّا وكيفا، والظاهر أن الغرض من هذا التشبيه بيان مقدار المشبه به؛ إذ إنه من المعلوم للمخاطب أن أول الناس مرورا سيكسو وجوهَهُم النُّورُ، وسيتسم مرورهم بالسرعة، إلا أن المخاطب يجهل مقدار هذا النور وتلك السرعة، خصوصا وأن أقدار الناس فوق الصراط ستكون متفاوتة بتفاوت أعمالهم، فمن كان في الدنيا أسرع إلى التزام صراط الله ﷻ كان على الصراط أسرع، وأبيض وجها، فأرادَ النبي ﷺ أن يبينَ مقدار هذا النور وتلك السرعة، فَجَاءَ بهذا التَّشبيهِ الدقيق لأجلِ ذَلِكَ، ولما كان هذا التشبيه يكشف عن منزلة أقوام أصفياء عظمت أعمالهم وارتفعت درجاتهم، ناسبه أن يكون المشبه به دالا على شدة نور وجوههم، وسرعة مرورهم وهذان الأمران ظاهران في المشبه به (البرق) الذي يكاد يخطف الأبصار من قوة ضيائه، كما أن التشبيه دل على سرعة عالية تتناسب مع منزلة المشبه، وبهذا يكون التعبير النبوي الشريف قد حدد سرعة تلك الطائفة بسرعة البرق، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن البرق يسير بسرعة محددة معلومة، وهذه الحقيقة لم يكتشفها العلم إلا في عهد قريب(١)، فهي لم تكن معروفة في عهد النبي ﷺ ؛ لذلك أسرع أحد الراويين بالسؤال؛ ليكشف عن استغرابه ودهشته لما سمعه، فالناس كانوا يظنون أن البرق لا يحتاج إلى زمن، ولم يكن في معلومهم أن البرق يمر ويتحرك ويسير؛ لذلك بادر أحد الراويين بالسؤال قائلا: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي

(1) Martin A Uman Lightnining Courier Dover Publications1984 .

أَيُّ شَيْءٍ كمَرِّ البَرْق؟؛ لتأتي الإجابة من الرسول ﷺ في عبارة محكمة سديدة وإشارة خاطفة بالغة الثراء تحمل فيضا كبيرا من الإعجاز، فيقول: (أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟).

وتلحظ هنا أن جواب النبي ﷺ ينأى عن الجواب المباشر المألوف المتوقع، فلم يجب السائل بما سأل عنه، وإنما وجه الكلام إلى كشف حقيقة علمية غابت عن السائل وأهل عصره وزمانه، فصرف المخاطب إلى أمر مهم يحتاج إلى إعمال عقل وتدبر، فآثر التعبير بأسلوب من شأنه أن يقنعه بالحقيقة التي غابت عنه؛ ليطرق بابا جديدا ويسلك فكرا سديدا توجيها للأذهان، ولفتا للانتباه، فأتى بالجواب في صورة الاستفهام التقريري (أَلَمْ تَرَوْا)؛ لاستحضار صورة البرق، وهو تقرير يحمل معنى التعجب، وكأن النبي ﷺ يتعجب من سؤال السائل، وكيف غاب عن ذهنه حقيقة البرق، مع أنه من الأمور المشاهدة بالعين، وسِرُّ اختيار الاستفهام أسلوبًا للتعبير عن هذه المعاني بدلاً من الخبر، هو ما يحدثه أسلوب الاستفهام عادة في السياق من إثارة وحيوية وتفاعل يجذب الانتباه ويدعو العقل إلى التأمل والتبصر والتفكير في مظاهر الكون؛ ويحوّل الأذهان إلى المجهول؛ ليفتح للعلم والمعارف أبوابا تلج بالسامع إلى دروبٍ متنوعة، ومراتع خصبة، وأودية ثرية؛ فيشارك السامع في استنتاج الدّلالة، أو في الوصول إلى الحُكم، ويزيل ما قد ران على نفس السائل من ظلال الشك التي حملته على سرعة السؤال دون أن ينتظر نهاية الكلام، فلا يدع مجالا لإنكار تلك الحقيقة؛ إذ إن المخاطبين مشتركون في تقريرها، وفيه بيان لأهميّة ما سيلقى حتّى ينتبه له ويقوم بمقتضاه، وهذا لا يحدث مع الأسلوب الخبري، وناسب ذلك عدوله ﷺ عن مخاطبة المفرد إلى التعبير بالجمع في (تَرَوْا)، ولا شكّ أنّ هذا العدول فيه لفت للأنظار، وتنبيه منه ﷺ إلى أن ما سيقوله يجب أن يكون محل نظر واهتمام من جميع من سيسمع هذا القول، فالأمر ليس موقوفا على السائل فحسب ولا حتى

الحاضرين، وإنما هي دعوة للأمة كلها، بل لكل من يصح منه الخطاب وله عقل يدرك ويعقل أن يشحذ الأبصار للنظر إلى عجائب الله والتأمل في آيات كونه، وهذا يتناسب مع الحقائق العلمية التي لا تقف عند حد زمان ولا مكان، بل هي متاحة للجميع، ويؤكد ذلك تعبيره ﷺ بالرؤية في قوله: (أَلَمْ تَرَوْا...)؛ ومعلوم أن الكلام إذا صدر بالفعل (ترى) دل على أنه يشتمل على أمر عجيب فجيء بهذا التعبير هنا؛ ليركز على رؤية مشهد البرق، ويفتح للسائل بابا من الحسّ عن طريق مشاهدة هذه الصورة المحسوسة، وكأنه ينقلنا من عالم المجهول إلى عالم المحسوس لإدراك هذا الأمر العجيب.

وفي إيثار التعبير بـ (ألم) دون أختيها (أو لم)، و (أفلم) تجسيد لجمالية كلمات الحديث النبوي الشريف، وضرب من التدقيق فيما يستعمله من الوسائل التي تكشف عن أغوار المعاني، وبراعة منه ﷺ في اختيار كلماته، وتمكنه الرفيع في التصرف بمفرداته مع مراعاة المقام وملاءمة السياق؛ لأن التعبير بـ(ألم) يأتي إذا كان السياق يقتضي الاستدلال والنظر العقلي، وذلك فيما لم يكثر في معلومهم أشباهه، فهم ينبهون عليه ابتداء من غير تقدير تنبيه على شيء مثله مما قبله، بخلاف أختيها (أولم، و أفلم) فهما يأتيان فيما كَانَ الِاعْتِبَار فِيهِ بِالْمُشَاهَدَةِ وما كان فيه أمثال منبهة عليه، فالعطف فيه تنبيه على ما تقدمه في التقدير.[1]

(١) يراجع درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ): ١/ ٤٨١:٤٨٣، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م. ويراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لأبي القاسم برهان الدين الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ): ١٠٥، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، بدون تاريخ.

والتعبير النبوي هنا (أَلَمْ تَرَوْا...) جرى مجرى الاستئناف؛ لأنه وإن كان الحديث هنا عن البرق الذي يرى بالعين، إلا أن مقصد الحديث ودلالته المرادة ليست في ما تراه العين المجردة، وإنما المقصد والمراد هو الحديث عن حقيقة علمية دقيقة تحدث في برهة من الزمان غائبة عن الرؤية، محال إدراكها بالعين المجردة، لا يتم إدراكها إلا بأجهزة تصوير متطورة؛ لأن العين لا يمكن أن تلاحظ الأحداث التي تتم في أجزاء من الألف من الثانية إلا بواسطة أجهزة دقيقة متطورة.

كما أن عدم مجيء (الواو) في البيان النبوي جعله يحمل دلالة التنبيه على تلك الحقيقة الغائبة دون توبيخ للسائل، إذ إن "كل ما فيه واو... فالتكبيت فيه أعظم"(١)، والبيان النبوي هنا يقرر الحقيقة دون قصد لتوبيخ أو نحوه.

وتأمل التناسق العجيب في التعبير بحرف الجر (إلى)، فمع أن الفعل (رأي) يتعدَّى بنفسه دونَ الجارِّ، إلا أن النظم أثر أن يعبر به متعديا بحرف الجر (إلى)؛ لأن النظم الشريف ضمنه معنى الوصول والانتهاء، وهذه دعوة للبحث وراء ما يشاهد بالعين للاستدلال على ما خفي من حقائق من طبيعتها أن لا يتوصل إليها بمجرد الرؤية العادية، وكأن تعدي الفعل بحرف جر فيه إشارة إلى أن قصر البحث في هذه الحقيقة على مجرد النظر المعتاد لن يصل بك إلى المراد، ولن يكشف لك حقيقة الأمر، ولن ينتهي علمك إلى لبه إلا بوسائط وأدوات.

ثم تأمل التعبير بـ(كَيْفَ) وما فيه من غاية في الدقة وفسحة في المعاني؛ لأنها وجهت الأذهان إلى الوقوف على الفائدة المرجوة من رؤية البرق، فإذا كان الجميع يرى صورة البرق في السماء إلا أن هذه الرؤية تعد رؤية عين

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، : ١/ ٤٨٣:٤٨١

سطحية، في حين أن النبي ﷺ يريد من أمته أن تكون نظرتها لمثل هذه الأمور نظرة عميقة تبحث عن حقائق الأشياء وتصل إلي دقائقها، فأتي بـ(كيف) هنا لتدعو المستمع إلى الوقوف على كيفية الحدث لا مجرد الحدث، وتحثه على التأني ومراجعة النظر مرة بعد مرة، وأَجْمِل بمثل هذه المراجعة الداخلية للنفس التي أحدثتها (كيف) وما فيها من حث على النظر في عجائب الكون للوقوف على بديع خلقه، ومعجز صنعه، لهذا تجد (كيف) في القرآن غالبا ما تأتي بعد الفعل (انظر) ليدعو الناظرين إلى التأني والبحث عن حقيقة الأشياء، وتأمل الحديث دون (كيف) (أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟) تجده خاليا من تلك الفائدة البديعة، وهذا يتناسب مع متطلبات العلم الحديث الذي يحتاج إلى بعد نظر، ومداومة بحث، وإطالة فكر.

والتعبير النبوي الشريف (يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟) لا تنطق كلماته بمعانيه فحسب وإنما تنطق حروفه وأصواته أيضا؛ ليتطابق التعبير النبوي الشريف بكل أجزائه ومكوناته تطابقا تاما مع ما توصل إليه العلم الحديث الذي يقول: إن هناك طورين رئيسين لا يمكن لومضة البرق أن تحدث من دونهما أبدا، وهما طور المرور، وطور الرجوع[1]، وهذا يتطابق تماما مع التعبير الوارد في الحديث الشريف.

والمتأمل للتعبير النبوي الشريف يجد أن التعبير بلفظتي (يمر، و يرجع) فيه إصابة متناهية وغزارة في العطاء وفسحة في المعاني، ودقة في الانتخاب، وحذق في الاستعمال، فدلالتهما اللغوية تدل على براعة اختيارهما دون غيرهما، فـ (مرّ) عليه وبه يَمُرُّ مَرًّا، أَي: اجتاز، ومَرَّ يَمُرُّ مرًّا ومُروراً:

(١) بحث بعنوان (إعجاز السنة المطهرة في الحديث عن البرق) بقلم عبد الدائم الكحيل، منشور على موقع أسرار الإعجاز العلمي.

ذهَبَ واستمرّ[1]، (ورجع) تدل على رد وتكرار، تقول: رجع يرجع رجوعا، إذا عاد[2].

كما أن التعبير النبوي الشريف تميز بإتقان شديد في نسج حروف كلماته وتناسقها والعناية بها؛ لتشكل جرسا مقصودا أحدث وقعا لدلالتها الصوتية في الأسماع، وأوجد أثرا عمل على تقريب المعنى للقلوب في أحسن صورة وأدق تعبير، حيث أتى بلفظتي (يمر، و يرجع) مشتملتين على حرف (الراء) الدال على التكرار الذي يحاكي ما في عملية البرق من تكرار لحركة الشعاع ذهابا وإيابا، كما استعمل البيان النبوي دلالة الزمن استعمالاً في غاية الدقة والجمال؛ حيث ورد الفعلان بصيغة المضارع؛ لما فيها من تصوير واستحضار ودلالة على التجدد والاستمرار، بل إن صيغة المضارع تعلن هنا أن هذه الحقيقة العلمية لا تقف عند عصر معين ولا زمن محدد، بل هي متجددة بتجدد العصور؛ وبهذا تكون اللفظتان قد كشفتا بجرسهما ودلالتهما المعجمية، والصياغة الزمنية عما يحدث في ومضة البرق بدقة عالية، فمن المعلوم أن عملية البرق عملية متجددة تحدث بين الحين والأخر، بل إن الومضة الواحدة تشمل على تكرار في الضربات، والضربة الواحدة فيها ذهاب وإياب، فالعلم الحديث أثبت أن الومضة تخرج ذاهبة عبر مسار معين وترجع آيبة إلى نفس المحل الذي بدأت منه عبر نفس المسار، وهذا يكشف عن بلاغة التعبير بهاتين اللفظتين.

وتأمل كيف جمع النبي ﷺ بين طوري البرق في لفظتين (يَمُرُّ

---

(١) لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري مادة: (م ر ر) دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.

(٢) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، مادة: (ر ج ع) تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

وَيَرْجِعُ) بما بينهما من طباق يدل على الشمول والعموم ليشمل كل المراحل التي يمر بها البرق، ثم يصرح بالوقت اللازم لهذه الرحلة ذهابا وإيابا، ويبين أنها تأخذ من الوقت مقدار طرفة العين، والمتأمل في التعبير النبوي الشريف (طَرْفَةِ عَيْنٍ) يجد براعة في التصوير ودقة في التحديد، إذ إن طرفة العين وهي وقوع الجفن على الجفن عملية تشتمل على فعلين (غلق، وفتح) وبين العمليتين طباق يناظر ما في أطوار البرق من ذهاب وإياب، كما أن طرفة العين عملية يمر خلالها الجفن بمسار محدد أثناء عملية الغلق ويعود من نفس المسار عند الفتح.

ويزيدك وعيا بما وراء التعبير النبوي الشريف وما يتميز به من فروق دقيقة تجعله يتدفق بشلالات من الضياء وفيض لا نهاية له من العطاء، فدقة تعبيراته لم تقف عند هذا الحد من المعاني المذكورة، بل إن العلم الحديث يكشف لنا ما هو أبعد من ذلك؛ حيث يصرح بأن الزمن الذي يستغرقه البرق في طوريه هو أجزاء قليلة من الثانية، وهو يقدّر بعشرات الميلي ثانية، وهو تقريبا نفس الزمن الذي تستغرقه العين عند طرفتها، بل إن العلماء قد استعملوا التعبير النبوي ذاته في أبحاثهم الحديثة، فيقولون على موقع ناسا: إن البرق يحدث في طرفة عين(١).

والأعجب من ذلك أن العلم قد صرح بأن الوقت الذي يقطعه البرق قد

---

(1) (A lightning strike ،...like an explosion that happened in the blink of an eye.)

(ضربة البرق... مثل انفجار يحدث في طرفة عين)

Steve Goodman, A Lightning Primer, Dec, 2000, www.nasa.gov, http://weathereye.kgan.com/cadet/lightning/thunder.html) تمهيدي البرق

كتبه ستيفن غودمان)

يختلف من مكان لآخر ومن وقت لآخر حسب الظروف الجوية المحيطة، وحسب كثافة الغيوم، ومدى تشبعها ببخار الماء[1]، إلا أن هذا الزمن يبقى مقدرا بعدة عشرات من الميلى ثانية، ثم يعلن العلم الحديث أن المدة اللازمة لطرفة العين تختلف – أيضا – من إنسان لآخر حسب الحالة النفسية والفيزيولوجية والسن، إلا أنها – أيضا – تبقى مقدرة بعدة عشرات من الميلي ثانية، عادة ما يكون متوسطها حوالي ٣٠ ميكروثانية. [2]، وهذا يكشف عن سر بلاغي من أسرار التعبير بحرف الجر (في) الدال على الظرفية الذي جعل طرفة العين تحتوي على مرحلتي البرق، ليس فقط في كون كل منهما مكونا من طورين، ولا في كون كل منهما متفق في الزمن، ولكنه دل على أن الوقت الذي يستغرقة البرق إيابا وذهابا مهما اختلف وقته لاختلاف الظروف، فهو لا يخرج من الوقت اللازم لعملية طرف العين التي يتغير فيها – أيضا – الوقت بتغير الظروف، وهذا يكشف عن دقة متناهية في التعبير النبوي الشريف، وبراعة فائقة في اختيار كلماته؛ إذ استطاع أن يعطينا الزمن والمجال الذي يتراوح ضمنه هذا الزمن في أسلوب علمي غلب عليه الطابع العقلي، وبرزت فيه المصطلحات العلمية الدقيقة التي سبق بها النبي ﷺ المكتشفات العلمية في عصرنا الحديث التي لم تجد بدائل عن التعبيرات النبوية لتصف بها تلك الظواهر الكونية العجيبة.

ومن الملاحظ في حديث النبي ﷺ أنه قد رتب سرعات الناس عند مرورهم على الصراط ترتيبا محكما، وبُنِيَ هذا الترتيب على أسلوب التشبيه

---

(1) Martin A Uman, Lightning, Courier Dover Publications,1984

(2) Susan Chollar, In the blink of an eye, Psychology Today, March, 1988.

(أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ... ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ) وهذه التشبيهات زادت المعنى وضوحا وظهورا؛ لأن الأشياء تتميز بأضدادها، وتعرف وتشهر بما يقابلها، كما أنها زادت المعانى والمبانى تماسكا وتناسبا؛ لأن الشىء يحن إلى نظيره ويأخذ بحجزة شبيهه.

ومعلوم أن المارين على الصراط أصناف، وكل صنف يختلف عن غيره في السرعة، كتفاوت سرعات المشبه به، فسرعة البرق تختلف عن سرعة الريح، وسرعة الريح تختلف عن سرعة الطير... بل إن سرعة الشيء الواحد تتفاوت بحسب أحواله، إلا أن التعبير النبوي الشريف بيّن أمرا عجيبا تمثل في أن تشبيه سرعة المارين على الصراط لم تتناسب فقط مع سرعة المشبه به، بل إن نسبة التفاوت في سرعة الشيء الواحد تتناسب مع التفاوت بين أفراد كل فريق، بمعنى أن أول الفرق مرورا هم جماعة مصطفاة قليلون، يمتازون بصلاح عملهم ونقاء قلوبهم، إلا أنهم متفاوتون في العمل بقدر قليل جدا لا يكاد يلاحظ، وهذا الأمر نفسه هو الموجود في المشبه به وهو البرق؛ إذ إن البرق يتفاوت في سرعته حسب الظروف المحيطة به، إلا أن هذا التفاوت ضعيف جدا لا يكاد يرى أو يلاحظ، أما لو انتقلنا إلى درجة أقل، تجد أن أعدادها كثيرة، وبين أفرادها تفاوت واضح في العمل، لذا تجد المشبه به تتفاوت سرعاته بين أفراده بشكل واضح.

ومن الملاحظ أن هذا الكلام المعجز أتى في سياق الحديث عن يوم القيامة، هذا اليوم الذي ينكره المشركون وينكرون ما فيه، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يخاطب منكري البعث والحساب بحقائق علمية سوف يرونها ويتأكدون من صحتها يقينا؛ ليبين لهم أن القيامة بما فيها من أهوال ومرور من على الصراط حق يقيني متحقق كتحقق ما رأوه وأثبتوه، بل هي أشد يقينا مما تيقنوه، وبذلك يظهر جانبا من جوانب مجيء تلك الحقيقة العلمية في سياق الحديث عن يوم القيامة.

وقد تعددت الأحاديث التي رتب فيها النبي ﷺ الناس حسب مرورهم من فوق الصراط مع وجود بعض الاختلافات التي لا تخلو من مفارقات بيانية ذات أثر بالغ في بيان فقه المعنى واستنباطه واستبطان دقائقه ولطائفه، والمتتبع لتلك الأحاديث يجد أن البرق قد احتل المرتبة الأولى في بعض الأحاديث، كالحديث موضع الدراسة، وبعضها بدأ بلمح البرق كحديث: (... ثُمَّ يُأْمَرُ بِالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ، قَالَ: فَيَمُرُّ النَّاسُ كَقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ زُمَرًا، أَوَائِلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ،...)[1] وكحديث (يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ) [2]، في حين أن هناك أحاديث ذكر فيها النبي ﷺ أن أول المارين يكونون في مرورهم كالطرف، حيث يقول: (...الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ أَحَدُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا...) [3]، وحديث: (الصِّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ

---

(١) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود، البعث والنشور للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ): ٣٢٦، (بَابُ دُعَاءِ أَهْلِ النَّارِ بِالوَيْلِ والثبُورِ والزَّفِيرِ والشَّهِيقِ وبُكَائِهِم)، حديث رقم (١١٨٠) تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦.

(٢) من حديث سيدنا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُود، سنن الترمذي: محمد بن عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ): ٣١٧/٥، باب (ومن سورة مريم،حديث رقم ٣١٥٩) تحقيق وتعليق:الشيخ أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

(٣) من حديث سيدنا أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ، كتاب الإيمان لابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ)٨٠٠/٢، (باب ذِكْرُ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرُؤْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حديث رقم: ٨١٧) تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦.

مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ فتمُرُّ الطَّائفة الأُولى كالبَرْق، وَالثانِيَة كالرِّيح، وَالثالثة كأَجْوَدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعَةُ كَأَجْوَدِ الْإِبِلِ وَالْبَهَائِمِ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ). (١)

وقد يتوهم من النظرة الأولى تناقضا بين هذه الأحاديث، إلا أن المدقق يجد أنه لا تناقض بين النصوص الشريفة، بل هي أحاديث يشد بعضها بعضا؛ ليكتمل المشهد وتتم الصورة من خلال الترتيب البديع لتعبيرات الحديث النبوي وجمله، فمن الواضح أن أعلا منزلة هي لمح البرق، ثم الطرف، ثم البرق، وهذا الأمر في حد ذاته إعجاز علمي؛ حيث فرق النبي ﷺ بين هذه السرعات المتقاربة جدا، ومن يتأمل تلك السرعات الثلاثة يجد أن لمح البرق أسرع من طرف البرق؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن حدوث عملية البرق، والتي لا تكتمل إلا بذهاب الضوء ورجوعه، وإنما هي مجرد توجيه النظر إلى ضوء البرق، وهذه العملية أقل – أيضا – من الطرف؛ لأنها لا تحتاج إلى ذهاب الجفن وإيابه، وإنما تحصل بمجرد وقوع العين على الشيء المرئي، ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف نوجه ما أتى في الحديث موضع الدراسة وما احتذى حذوه من الأحاديث التي صرحت بأن أول زمرة تمر من على الصراط يمرون كالبرق؟

من يعقد مقارنة بين ما بدأ بلمح البرق والبرق يجد أن بعض الأحاديث التي بدأت بالبرق الخطاب فيها موجه للأمة المحمدية، فتجد النبي ﷺ يقول:(فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ...) ويقول:(... فَيَمُرُّ أُولاكُمْ كَالْبَرْقِ)، أما ما بدأ

(١) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود، المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ): ٢/ ٤٠٧،(من باب تفسير سورة مريم، حديث رقم: ٣٤٢٣) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠م.

بلمح البرق فالحديث فيه عن عامة الناس بما فيهم الأنبياء والرسل، يقول النبي ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثمَّ يصدون مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْق) لهذا يكون أول الناس مرورا من على الصراط هم الأنبياء ويمرون كلمح البرق، أما أول من يمر من أمة النبي ﷺ فيمرون كالبرق.

وبهذا تكون السنة قد كشفت في توافق تام وانسجام بديع عن حقائق علمية معقدة تطابق فيها التعبير النبوي الشريف مع المكتشفات العلمية الحديثة، على الرغم مع أن ما قيل كان في زمن لم يكن في مقدور البشر ولا في علمهم معرفته ولا الإحاطة به.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَى تُعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا) (١).

الإعجاز العلمي في الحديث:

يتضمن هذا الحديث النبوي الشريف ــ حقيقة علمية مبهرة أثبتها البحث العلمي الحديث، تلك المعجزة متعلقة بمناخ شبه الجزيرة العربية منذ آلاف السنين، حيث أخبر النبي ﷺ أن شبه الجزيرة العربية كانت أنهارًا ومروجا، كما يتضمن – أيضا – نبوءة علمية عجيبة وغريبة أخرى، ألا وهي: عودة الصورة الأصلية القديمة لشبه الجزيرة العربية.. حيث الأنهار الجارية، والمراعي الخضراء الشاسعة.

(١) صحيح مسلم: ٣/ ٨٤، من باب (أبواب الجمعة، حديث رقم: ٢٣٠٢).

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف.

في هذا الحديث يبين لنا النبي ﷺ أمرا عجيبا قاله في زمن غريب حيث كانت جزيرة العرب صحراء لا زرع فيها ولا ماء، وكان أشهر ما يميزها هو انتشار لون الرمال الصفراء القاسية الملتهبة، وهذه المناطق الصحراوية قد تشهد بعض الجهات الداخلية وخصوصا الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية سنوات بطولها دون أن تتلقى قطرة مطر واحدة، فهي من أكثر أجزاء الأرض قحولةً وجفافًا، وقد وصف المولى ﷻ بعض أرض العرب وصحرائها، حين قال في كتابه الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ﴾[سورة إبراهيم الآية: ٣٧] وهذا يدل على حالة الجدب والجفاف التي تعيشها شبه الجزيرة العربية منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومع أن هذه هي السمات العامة لمعظم أراضي شبه الجزيرة العربية، إلا أن النبي ﷺ يخبرنا أنها كانت أرض مراع وأنهار، وستعود حيث كانت، ولا شك أن معنى الحديث غريب وعجيب، يصعب على العقل فهمه أو تفسيره، خصوصا في زمان النبي ﷺ، إلا أن العلم الحديث وبعد أربعة عشر قرنا من الزمان يأتي بعد التقدم الهائل في علوم الجيولوجيا والتاريخ المناخي والفلك وغيرها، وبعد العديد من أعمال الحفر والتنقيب بصحراء شبه الجزيرة العربية، ليثبت ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ صدق النبي ﷺ

ومن الملاحظ أن بناء الحديث قام على الأسلوب الخبري؛ ليتوافق مع الإعلان عن هذه الحقيقة العلمية التي تتضمن ثوابت يقينية لا تقبل الشك أو الإنكار، وأول ما يمكن أن نقف معه في التعبير النبوي هو حرف الجر (حتى) في قوله: (حَتَى تعُودَ) وهذا الحرف يدل على انتهاء الغاية؛ لأن الفعل

المتعدي به الغرض فيه أن ينقضي شيئا فشيئا، حتى يأتي عليه، كما أن الغالب في مجرورها دخوله في حكم ما قبلها[1]، وهذا يدل على أن الساعة لن تقوم إلا بعد حدوث ما بعد (حتى) بشكل تام غير ناقص، وهذا يأخذ بأيدينا للوقوف على ما بعد (حتى)، وهو الفعل المضارع (يعود)، وهنا يتجسد جانبا من جماليات تعبيرات الحديث النبوي الشريف حيث براعة كلماته، والتمكن الرفيع في التصرف بمفرداته مع مراعاة المقام وملاءمة السياق، فلم يقل ﷺ (حتى تأتي المروج والأنهار) أو (حتى تصبح) أو (حتى تتحول)، وإنما قال: (حتى تعود)، وهذا التعبير النبوي الدقيق فيه سداد وإصابة وغزارة في المعنى حيث كشف عن جانب من بيانه ﷺ عن طريق مجيء تلك اللفظة في التعبير النبوي الشريف داخل البنية السياقية لتعطي قيمة دلالية داخل نسيج النص النبوي، لتكشف عن نبوءة مركبة ومزدوجة، إذ هي كاشفة لحجب الماضي البعيد والمقدر بعشرات الآلاف من السنين، وفي الوقت نفسه كشفت المستقبل الغيبي؛ لأن الفعل يدل على أن تلك المنطقة كانت مروجا وأنهارا وستعود إلى كامل ما كانت عليه دون أن يعتريها نقص عما كانت عليه قبل ذلك؛ لأن (حتى) – كما مر – تدل على انتهاء الغاية.

وتأمل ما في التعبير بكلمة (مروج) من دقة في الأداء وروعة في الاختيار وقيمة فنية رائعة؛ إذ استطاعت أن تبرز المعنى المراد وتوضحه بشكل دقيق وشامل بمعناها وصياغتها؛ لأن المَرْجَ أَرضٌ واسعةٌ ذاتُ نبات

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ): ٥٤٥، ٥٤٦،، تحقيق: د فخر الدين قباوة –الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م

ترْعَى فيها الدوابُّ[1]، واستعمالها بصيغة الجمع يدل على كثرتها، ومجيئها على صورة النكرة يدل على عظمتها، وهذا ما يقوله العلماء بالحرف الواحد، وصورته أجهزتهم، فيقولون: إن ما يميز صحراء الربع الخالي قبل عدة آلاف من السنين أنها كانت مغطاة بالأعشاب والمروج بشكل جذب الكثير من الحيوانات إليها، وأقر العلماء أن هذه المنطقة كانت ذات يوم مغطاة بالأنهار والبحيرات العذبة الزاخرة بالحياة والنباتات والمروج، وقد عثر في منطقة الربع الخالي على آثار لمخلوقات نهرية عديدة وحيوانات مثل الجمال والخراف والغزلان كانت ترعى ذات يوم! [2]

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن هذه المنطقة كانت غنية بالماء الجاري وذلك في قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ﴾ [سورة إبراهيم الآية: ٣٧] ؛ حيث عبر سيدنا إبراهيم عليه السلام بكلمة (واد)، الوادي كل مَفْرَج بين الجبالِ والتِّلال والإكام، سمي بذلك لسَيَلانه يكون مَسْلَكاً للسيل ومَنْفَذاً،[3] ووجوده دليل على أن وادي مكة تكون بفعل جريان مياه تدفقت من خلاله في أزمنة ماضية وأتى عليه زمان فجفت مياهه ولم يبق منها إلا آثار تلك الأودية التي حفرتها المياه، وبهذا يكون التعبير بكلمة (وادٍ) في الآية فيه إشارة لما كان عليه هذا المكان في سابق عهده، حيث الماضي البعيد وما احتواه من ماء غزير، كما أن القرآن صرح بهذه الحقيقة حينما تحدث عن عاد عندما قص ما جاء على لسان نبيهم هود عليه السلام ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢﴾

(١) لسان العرب: مادة: م ر ج.

(٢) بحث منشور بعنوان: أنهار الربع الخالي: معجزة للنبي الكريم ، بقلم: عبد الدائم كحيل، موقع أسرار الأعجاز العلمي.

(٣) لسان العرب: مادة: و د ى.

أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [سورة الشعراء من الآية ١٣٢:١٣٤]

فكان من النعم التي امتن الله بها عليهم أن جعل لهم جنات، وجعل لهم عيون ماء، وفي هذا إشارة واضحة بأن أرض الجزيرة العربية كانت في الماضي أرضا خضراء تتدفق بها عيون تجري بالماء الفرات، و تقوم على ضفافها مروج وجنات، ومن المعلوم أن قوم عاد كان يسكنون جنوب صحراء الربع الخالي، وموقع هذه البلاد في يومنا هذا ليس فيه أنيس ولا أثر، إذ إن الكثبان الرملية العالية هي التي تغطي تلك المنطقة، وهذا كله يتلاقى مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وبالعودة إلى الحديث وكلماته تجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أسند العود إلى الأرض في قوله: (تُعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا) وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن عودة المروج والأنهار سيكون لأمور لا دخل للبشر فيها، وإنما ستكون الطبيعة – بتقدير وأمر ربها سبحانه – هي العامل الرئيس في عودة تلك الأنهار وتلك المروج، فلن يشق الإنسان للماء مجرى ولن يحفر له بئرا، ولن يزرع للمروج شجرا، وإنما كل هذا سيحدث نتيجة تغيرات في طبيعة المناخ، وجيولوجيا الأرض، وبالنظر إلى ما أخبر به العلم الحديث تجد أنه ينص على أن أرض العرب ستعود بساتين وأنهارا بسبب ظاهرة الزحف الجليدي من القطب المتجمد الشمالي إلى الجنوب، التي ستصحبها سقوط أمطار غزيرة، وقد أكد العلماء على بداية دورة جليدية جديدة بدأت شواهدها تظهر بالفعل، وأكدوا أنها تتجه نحو أرض العرب، لتعود إلى ما كانت عليه أنهارا ومروجا، فيكثر الخير ويزداد(١).

(١) الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د/ رضا بن أحمد صالح: ٩٢٦ مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ.

وهذا التعبير النبوي الشريف يتوافق مع ما ورد في القرآن الكريم في قوله – تعالى–: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾(من الآية: ١٧ سورة الرعد). فهذا التعبير الحكيم يدل على أن الأودية تتكون ذاتيا عند سقوط المطر الغزير؛ حيث يتجمع ماء المطر في المنخفضات والصدوع الأرضية ومع زيادة هطول الأمطار يأخذ الماء يشق طريقه عبر الصخور مكونا المجاري المائية أو ما يعرف بالأودية؛ لتحمل ماء المطر.

ولعل هذا الأمر يكشف لنا عن مناسبة بين طرفي الحديث؛ حيث جمع الحديث بين أمرين: أولهما: كثرة المال وفيضانه، الأمر الثاني: عودة بلاد العرب مروجا وأنهارا، والتناسب بين الطرفين في اللفظ والمعنى؛ إذ إن كثرة الماء تناسبها كثرة أشجار البساتين والغابات، وفيضانه يتناسب مع غزارة الماء وجريان الأنهار، كما أنه متى فاضت الأنهار وكثرت الأشجار فهذا دليل على الخير والنماء ووفرة الرزق وكثرة المال، ولاحظ أنه قدم لكل هذا بقوله: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ) أي أن هذه الأمور في نهاية العالم، وهذا يتوافق مع كلام رب العالمين – سبحانه–: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ (سورة يونس، من الآية:٢٤) فالنظم هنا يوضح أن الساعة لن تقوم إلا إذا أصبحت الأرض في أبهى زينتها، ومعلوم أن الجنان والبساتين وأصناف النباتاتِ وأشكالَها وألوانَها المختلفة تعد من أجمل المناظر وأحسنها، فسبحان من أجرى هذه الحقائق على لسن نبيه ﷺ.

الحديث الثالث

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضِي الله عَنْهُمَا ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَا مِنْ عَامٍ بِأَقَلّ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنّ اللّهَ – تَعَالَى – يُصَرّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَلَقَدْ صَرّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذّكّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُورًا﴾.(١)

الإعجاز العلمي في الحديث:

يمثل هذا الحديث سبقًا علميًا للمعارف الإنسانية في علم المياه؛ لأنه يتحدث عن حقيقة مائية لم تتكشف للعلماء إلا حديثاً، فعندما نتأمل الحديث الشريف نرى حقيقتين علميتين يؤكدهم النبي ﷺ في هذا الحديث:

أولهما: أن هناك معدلات ثابتة لكمية الأمطار التي تسقط كل عام.

ثانيهما: أن هذا الكم الثابت يوزع على سطح الأرض توزيعًا حدده رب العزة بحكمة معينة.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف.

كان الاعتقاد السائد زمن النبي الأعظم ﷺ أن كل سنة تنزل كمية من الأمطار تختلف عن السنة التي تليها، ولم يكن أحد يتخيل شيئًا عن دورة الماء، وأن أوزان الغيوم المعلقة في الجو شبه ثابتة، فالإنسان حتى في زمننا هذا يشعر بأن كم المطر الذي ينزل من السماء كل عام متغير، خصوصا إذا كان هذا الإنسان يعيش في بيئة يتقلب المناخ فيها بشكل ملحوظ، فسنة جفاف وأخرى لا، وعلى الرغم من ذلك، تجد أن النبي ﷺ يخبرنا بأن المطر الذي

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، (:٥٠٧/٢)، (باب كثرة المطر وقلته، رقم الحديث: ٦٧١٧)، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد: الطبعة: الأولى ــ ١٣٤٤ هـ.

ينزل من السماء لا يتغير كمه، حتى ولو لاحظ الإنسان في بيئته تغيرا من عام إلى آخر، وهذا ما أكده العلم الحديث وكشفت عنه أبحاث العلماء، حيث أثبت العلم الحديث بالأرقام والحسابات الدقيقة أن مجموع ما ينزل من السماء من ماء في كل عام هو كم ثابت لا يزيد ولا ينقص(١)، وهذه الحقائق العلمية الدقيقة لم يستطع الإنسان الوصول إليها إلا في أواخر القرن العشرين، في حين أن النبي ﷺ سبق إليها منذ أربعة عشر قرنا أو يزيد بعبارة محكمة موجزة، وأول ما يلفت النظر هو زيادة (من) في بناء المعنى وذلك في قوله: (ما من عام)؛ لتسبغ على الكلام لونا من تأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية (عام) وهذا التأكيد سببه أن الإنسان في بيئته تغيب عنه حقيقة تساوي كميات المطر التي تنزل من السماء كل عام، بل قد ينكر هذه الحقيقة بالكلية بسبب ما يستشعره من تغيير إما بالزيادة وإما بالنقص في كم المطر الذي يتساقط كل عام، وهذا قد يجعل السامع لهذه الحقيقة إما منكر لها أو يسبق إلى نفسه الوهم أن المراد من حديث النبي ﷺ أن هناك أعواما محددة تتساوى فيها كميات المطر وليس المراد كل الأعوام على الإطلاق، فجاءت من الاستغراقية لتؤكد الحقيقة وتدفع الوهم، وتأتي (الباء) في خبر (ما) (بأقل)؛ لتتلاقى مع دلالة التأكيد المستفادة من زيادة (من)؛ فـ(الباء) تزاد في خبر (ما) إذا كان الكلام يحتاج إلى تأكيد.

وعبر بلفظ عام دون سنة؛ لأن السنة تستخدم في الشدة والجدب، في حين أن العام يستخدم في الرغد والرخاء، ومعلوم أن الماء النازل من السماء نعمة

---

(١) ينظر الإعجاز العلمي في الحديث النبوي (ما من عام أمطر من عام): شاهر جمال آغا، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجلة الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥م.

من الخالق ﷻ على خلقه يأتي حاملا معه بشرى الخير والأمل والبهجة في النفوس، وعليه يكون التعبير بالعام مناسبا لجو العطاء والخير الذي ينشره نزول المطر على الأرض.

وفي التعبير بالعام تحديد دقيق للفترة التي يجب أن يتم حساب نسبة الأمطار خلالها على سطح الكرة الأرضية، فقد تختلف نسبة نزول الماء من شهر إلى شهر خلال الأعوام المتتالية حسب درجة الحرارة وحالة الطقس، ولكن إذا حسبنا كمية الأمطار الهاطلة خلال عام كامل نجدها ثابتة.

كما أن التعبير النبوي آثر (المطر) دون غيره، واختاره من بين ألفاظ كثيرة؛ ليؤدي المعنى المراد على أدق وجه وأوفاه بما لا تؤديه الألفاظ الأخرى، فمع أن القرآن الكريم غالبا ما يستعمل (المطر) في مواطن العذاب، ويستعمل الغيث في مواطن الرحمة، إلا أنّ الحديث النّبويّ جرى في استعماله مجرى مغايرًا؛ فقد استعمل المطر مرات عديدة (بمعناه العادي)[1] الذي يدور حول معاني الخير الكثير والرّزق الوفير، ولعل الحكمة في التعبير بالمطر دون الغيث، هو أنّ المطر أعمُّ من الغيث، إذ المطرُ يكون رحمةً، ويكون عذابًا، وأمّا الغيث فرحمةٌ خالصةٌ، فقيل: إن الغيث "هو المَطَرُ الخَاصُّ بالخَيْرِ، الكَثِيرُ النَّافِعُ؛ لأَنّه يُغَاثُ به النّاسُ"[2]، وحديث النبي ﷺ هنا ليس خاصا بما يغاث به الناس وفقط، بل يشمل كل ما ينزل من السماء في بر أو بحر، لخير أو لشر، فهو يتحدث عن عموم ما ينزل؛ لبيان كمه دون نوعه، وهذا يناسبه

(١) القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة، د/ إبراهيم عوض: ٢٠٦، مكتبة زهراء الشرق، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

(٢) تاج العروس محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)مادة:(غ ي ث)، دار الهداية.

التعبير بلفظ العموم وهو المطر، وهذا يكشف عما اشتمله التعبير النبوي من رعاية للفروق اللغوية الدقيقة بين معاني الكلمات، فيضع كل نوع منها موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة.

ثم إن الكلام الشريف لم يكتف بذكر هذه الحقيقة ولم يتركها هكذا في طي الإبهام، بل عقبها بكلام هو امتدادٌ للمعنى الأول الذي أخبر عنه ﷺ، وأتى به على صورة الاستدراك؛ ليزيل أي مظنة شك أو إنكار قد تطرق عقل السامع، حيث أخبر عن حقيقة علمية أخرى مرتبطة بما قبلها، وذلك في قوله: (وَلَكِنَّ اللّهَ – تَعَالَى – يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ) ووجه الاستدراك هنا هو أن النبي ﷺ لما بيّن تلك الحقيقة الغائبة عن أذهان بني البشر، فقد يهجس في نفس بعضهم شك نتيجة ما يراه في محيط بيئته الضيقة من زيادة ونقصان في كم المطر المنزل من السماء كل عام، فاستدرك بأنه – سبحانه وتعالى – يوزع المطر بحكمة ولحكمة، فتجد في مكان ما أمطارا غزيرة، وهناك جفاف، ثم تمر الأيام وتتبدل الأحوال وتجد عكس ما كان، وعبر النبي ﷺ بالفعل المضارع؛(يُصَرِّفُهُ)؛ ليدل على أن توزيع الماء على سطح الكرة الأرضية من الأمور المتجددة والمستمرة، بحيث تجد هذه العملية تتكرر كل عام، ويلتقي التكرار المفهوم من الفعل المضارع مع تكرار حرف (الراء) ليساعد على تصوير المعنى المقصود – تكرار نزول المطر بكميات ثابتة كل عام – في دقة تامة، وهذا ما أثبته العلم الحديث.

الحديث الرابع

عن عائشة – رضي الله عنها – أن رَسُول الله ﷺ قَالَ: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ، طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أَرَضِينَ» (١)

الإعجاز العلمي في الحديث:

يشير هذا الحديث النبوي الشريف إلى حقيقة علمية غابت عن العلماء قرونا طويلة، هي أن الأرض التي تعيش عليها ليست أرضا واحدة، وإنما هي سبع أرضين.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف.

هذا الحديث يوضح جزاء من اغتصب جزءا من الأرض ولو يسيرا، وقد صُدِّر هذا الحديث الشريف بجملة شرط أحدثت في نفس المتلقي تشويقا؛ لأن السامع حينما يسمع جملة الشرط يتطلع لمعرفة الجواب، فإذا ما طرق الجواب أذنه وقع في نفسه وأقره بوجدانه؛ إذ جاء وهو متشوق لمعرفته؛ وهذا يؤدي إلى تمكين المعاني عند المخاطبين، خصوصا إذا كان معنى غريبا يحتاج إلى ما يرسخه في نفوسهم، ومعلوم أن الصحابة وأهل زمانهم لم يكن لهم معرفة عن حقيقة الأرض ولا كيفية تركيبها، وكل ما كان يرد في خاطرهم هو ما وقعت عليه عيونهم من أن الأرض واحدة، إلا أن النبي ﷺ وبعبارة موجزة دقيقة تضمنت إعجازا علميا دقيقا استطاع أن يفتح بابا من أبواب العلم يخبرنا به أن تلك الأرض مكونة من سبع أرضين، وقد أقر القرآن الكريم هذه الحقيقة وأفصح عنها، وذلك في قوله – تعالى–: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) صحيح البخاري للإمام البخاري: ٣/ ١٣٠ بَاب إِثْمِ مَنْ ظَلَمَ شَيْئًا مِنْ الْأَرْضِ رقم الحديث (٢٤٥٣) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

مِثْلَهُنَّ ﴾ (سورة الطلاق من الآية: ١٢)، "أي: خلقَ من الأرضِ مثلَهُنَّ في العددِ" [١]، وقد أثبت العلم الحديث أن الأرض سبع طبقات، وذلك بعد أن غيروا وبدلوا رأيهم مرات عديدة.

ومن الملاحظ أن هذا الحديث يشتمل على تناسب بين العمل والعقاب، ومعلوم أن الجزاء في الأخرة يكون غالبا من جنس العمل ومتوافقا لما اقترفه الإنسان بمحض اختياره في الدنيا مصداقا لقوله – تعالى –: ﴿وَوَجَدُواْ مَاعَمِلُواْ حَاضِرًاۗ ﴾ [الكهف:٤٩] فلما كان العمل هو اغتصاب أرض الغير كان الجزاء أن طُوِق مِنْ سبْعِ أرَضينَ، وقوله ﷺ (طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أرَضينَ) يعد غاية في البيان وإعجازا في التعبير؛ إذ إنه صرح بعدد طبقات الأرض وهو سبعة، وحدد شكل هذه الطبقات في قوله: (طُوِّقَهُ) وهذا يدل على أنها طبقات تغلف بعضها بعضا وتحيط بعضها بعضًا؛ لأن التطويق يدل على معنى الإحاطة من كل جانب، وهذه بالفعل هي حقيقة طبقات الأرض يطوّق بعضها بعضًا، وفيه إشارة – أيضا – إلى الشكل الكروي أو القريب منه، أي أن الحديث الشريف يخبرنا –أيضا– عن كروية الأرض.

ويؤيد ذلك رواية سيدنا عبد الله بن عمر: (خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ)[٢] وهذه الرواية تشير إلى أن من أخذ شيئا من أرض بغير وجه حق يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، فيكون كل أرض في تلك الحالة طوقًا في

(١) إرشاد العقل السليم/ أبو السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ): دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٠.

عنقه، وهذا لا يتحقق إلا إذا كانت كل طبقة من طبقات الأرض محيطة بما قبلها ومطابقة لها، وتأمل هنا حرف الجر (إلى) وهو يدل على انتهاء الغاية، وفي رواية ثالثة أتى بحرف الجر (حتى) وذلك في قوله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ ظَلَمَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ كَلَّفَهُ اللَّهُ أَنْ يَحْفِرَهُ حَتَّى يَبْلُغَ سَبْعَ أَرَضِينَ، ثُمَّ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَفْصِلَ بَيْنَ النَّاسِ» (١)

ومعلوم أن (حتى) لا تجر إلا الآخر، وهذا يعنى أن العدد سبعة محدد بذاته وليس كما يتوهم البعض أن جزاء من اقتطع جزءا من أرض أن يخسف به إلى السابعة فقط، ودونها أشياء أخرى قد تخسف بغيره.

وعبر بالفعل (طُوِّقَهُ) مبنيا للمفعول ليلقى بظلال الكلام على الحدث ويصرف الانتباه إلى الفعل، وهذا أقدر على تصوير أحداث المشهد الغيبي الذى غابت دقائقه عن المتلقى أو خفى عن ذهنه وخياله، فيتلقي المشهد بمعناه العميق؛ ليتدارك خياله ما قصرت عنه حواسه المادية، وهذا الأمر من شأنه أن يؤكد حدوث هذا الوعيد فتنزجر النفوس عن فعل ما يوجبه، كما أن فيه تأكيدا على فكرة طبقات الأرض وعددها، ولما كانت تلك الفكرة غريبة عن السامعين أوجد لها البيان النبوي مساحة أوسع عن طريق بناء الفعل للمفعول، ولو قال: (طوقه الله) لانشغل الذهن بالفاعل حتى يظن أن هيئة الأرض التي وردت في الحديث، إنما هي هيئة سيوجدها الله ﷻ بقدرته يوم القيامة وهي ليست الهيئة

---

(١) (حديث صحيح) من حديث يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ): ١١/ ٥٦٧،(كتاب الغضب، حديث رقم:٥١٦٤)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط،: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م،.

التي وجدت عليها أرض الدنيا، وعليه فقد يُغفل عن هذه الحقيقة ولا يوقف عندها ولا يتدبر أمرها؛ لذلك تجد أن الحديث ورد فيه:(طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أرَضينَ) دون أن يقول: (طُوِّقَهُ مِنْ سبْعِ أرَضينَ يوم القيامة) ومع أن هناك بعض الروايات ورد فيها التصريح بـ (يوم القيامة) ليبين أن هذا الجزاء سيكون مستحقا يوم القيامة، وبهذا تتكامل الروايات.

ومن يتأمل هذا الحديث يجد أنه قد اشتمل – أيضا – على إعجاز في التشريع؛ حيث كشف عن أن من يمتلك جزءا من أرض فإنه يملك ما تحتها حتى الأرض السابعة، فمن غصب منه قطعة على سطح الأرض الأولى فكأنه غصب ما دونها فعوقب على جميعها.

الحديث الخامس

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلَّا حَاجٌّ، أَوْ مُعْتَمِرٌ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا، وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا» (١)

الإعجاز العلمي في الحديث:

يشير هذا الحديث إلى حقيقة علمية لم تكن معلومة لبني البشر قبل عقود قليلة، تلك الحقيقة تشير إلى أن البحار التي نشاهدها يوجد تحتها نار، وتحت تلك النار يوجد بحار، وقد أكد العلم الحديث صدق هذا القول بما لا يدع مجالا لأحد أن يطعن في حديث النبي ﷺ من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف

يتجلى الإعجاز العلمي في قول النبي ﷺ (فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا، وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا)، ومن المسلم به أن هذه الحقيقة لم تكن معروفة لأحد في عهد النبي ﷺ على الرغم من أن القرآن أشار لمثل هذا الأمر في قوله – تعالى: ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور:٦] والمسجور أي المملوء نارا(٢)،" ولم يستطع العرب وقت نزول القرآن الكريم أن يستوعبوا دلالة القسم بالبحر المسجور؛ لأن عندهم: (سجر التنور) يعنى أوقد عليه حتى أحماه، والماء والحرارة من الأضداد... فكيف يمكن للأضداد أن تتعايش في تلاحم دون أن يلغي أحدهم الآخر؟ وقد دفعهم ذلك إلى نسبة الأمر للآخرة... إلا أن القسم في مطلع سورة

---

(١) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق (المتوفى: ٢٧٥هـ):٤/ ١٤٥، (باب في ركوب البحر في الغزو، حديث رقم، ٢٤٨٩) تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(٢) – لسان العرب، مادة: (س ج ر).

الطور كله بأمور واقعة في حياتنا... "[1]، وهذا يدل على أن البحر المسجور موجود، وليس كما ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود أنَّ الله –تعالَى – سيجعلُ "البحارَ يومَ القيامةِ نَارًا يسجرُ بَها نارَ جهنمَ"[2]، وهذا الأمر جعل بعض شراح الحديث يؤولون هذا الحديث فيقولون: "تأويله تفخيم أمر البحر وتهويل شأنه، وذلك لأن الآفة تسرع إلى راكبه ولا يؤمن الهلاك في ملابسة النار ومداخلتها والدنو منها" [3].

ولما كانت هذه الحقيقة غريبة على أسماع أهل ذلك الزمان، فقد عمد النبي ﷺ إلى تأكيد كلامه بـ(إنّ) ليس لكون الصحابة الكرام شاكين في صدق نبيهم أو منكرين لما يقول، ولكن لغرابة الخبر، والرغبة في توكيد أهمية فهم مضمونه، فلفظة (إنّ) فيها تنبيه للمخاطب إلى أن خبرا ما من الأهمية بمكان سيلقي إليه، وعليه أن يقبل عليه بكل حواسه لتلقيه حتى يتمكن هذا المعنى في نفسه، خصوصا وأن الفكره التي يصورها الحديث الشريف من الأفكار القوية الجديدة التي تحتاج إلى وسائل الإقناع والتأثير، وقد اتخذ النبي ﷺ من التوكيد وسيلة لتمكين المعنى في نفوس السامعين، وكأنه يدعو الناس إلى إشحاذ الهمم وإطلاق العقل من إسار الجمود ليجول حرا متأملا في كلامه ﷺ ؛ ليقف على هذه الحقيقة، وهذا يتوافق مع المنهج القرآني في دعوة الناس عامة والمسلمين خاصة إلى النظر والتأمل في خلق الله.

ولقد جاء التعبير النبوي حاملا حقيقة علمية كونية عرضها النبي ﷺ بشكل محدد المعالم وبدقة متناهية النظير بما لا يدع مجالا للتأويل؛ حيث

---

(١) الإعجاز العلمي في السنة: ٥٧.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:٨ / ١٤٦.

(٣) معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ):٢/ ٢٣٨، المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

يقول: (إن تحت...) فهذه الكلمة في موضعها شافية كافية تفيض بعطاء لا نهاية له؛ لأنها حددت الجهة تحديدا دقيقا يرد أي قول يدعي أن المقصود هو أن مياه البحار ستصير نارا، بل إن هذا التحديد يأخذ بالأذهان إلى المكان المراد تحديده وهو (تحت البحر) أي في مكان (تحت البحر)، وتأمل التعبير النبوي وما اشتمل عليه من دقة؛ حيث آثر التعبر بكلمة(تحت) دون غيرها من مرادفاتها كـ(أسفل) وذلك؛ لأن (أسفل) ضد (أعلى) فإذا قلت: أعلى الشئ فإنه يدل على بلوغ منتهاه في العلو، "يقال: هو في أعلى النخلة يراد أنه في نهاية قامتها"[1]، فلو استعمل أسفل لدل على أن تحت البحار نارًا ولا شيء بعدها، أما تحت فهي تقابل فوق، وفوق الشيء أي أنه علاه دون أن يكون غاية في العلو، بل يجوز أن يكون فوقه أشياء أخرى، لهذا فإن (تحت) دلت على المكان، وأشارت إلى أن تلك النيران ليست غاية لما هو تحتها، بل إن تحت النار أشياء أخرى.

و(أل) في البحر هي (أل) الجنسية، أي أن تحت كل بحر من بحار الدنيا (نارا)، وفي تنكير (نار) ما يدل على التعظيم: أي أنها نار عظيمة لا يعرف قدرها ولا شدتها إلا خالقها، وهذا ما أكدته الأبحاث والاكتشافات العلمية الحديثة؛ حيث أكدت تلك الأبحاث وجود نار ملتهبة في أعمق البحار! وأن جميع البحار والمحيطات في العالم يوجد في قاعها شقوق تتدفق من خلالها الحمم المنصهرة، التي تبلغ درجة حرارة المواد المنصهرة منها أكثر من ألف درجة مئوية.[2]

---

(١) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ): ١٨٥، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

(٢) (موقع عبد الدايم الكحيل للإعجاز العلمي)

نقلا عن موقع (http://www.dailymail.co.uk/sciencete...LL-oceans.html).

ويكمل النبي الكريم تلك الحقيقة العلمية بقوله: (وَتحْـت النـارِ بَحْـرًا)، مستعملا كلمة (تحت) مرة ثانية ليدل على أن البحر الذي سيخبر عنه ليس هو منتهى التحتية، وإنما تحته أشياء مسكوت عنها في هذا الحديث، ويؤكد ذلك ما روي موقوفا على ابن عُمَرَ: "إِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا ثُمَّ مَاءً ثُمَّ نَارًا حَتَّـى عَـدَّ سَبْعَةَ أبحر وسبع أنيار"(١).

و(أل) في (النار) للعهد: أي أن تحت النار المذكورة بحرا، وأتى بلفظـة (بحرا) نكرة؛ ليدل على أنه بحر عظم شأنه، وهذا ما أكده العلم الحديث.(٢)

ومن يتأمل الحديث الشريف يجد أنه قد اشتمل على تأليف المُخْتَلِف؛ حيث جمع بين المعانى المنفصلة المتباعدة المواقع، المتنائية المطارح التى يكون كلٌّ منها من واد، (بحر ونار) ثم (نار وبحر) فالماء يطفيء النار، والنار تصهر الماء، إلا أن النظم الشريف قد جمع بين المتضادين حتى جعلهما أشد تألفا من الشيء المؤتلف فى الأصل، وأحسن توافقا من المتطابق فى أول الوضع، حيث دل على أن كلاهما يجاور الأخر دون أن يغير من خصائصه أو أن يطغـى على طبائعه، والواقع يشهد بذلك فالماء في البحار والمحيطات على كثرتـه لا يستطيع أن يطفيء جذوة تلك النار، ولا النار على شدة حرارتها تسـتطيع أن تبخر مياه البحار والمحيطات بالكامل، ويبقى هذا التوازن بين الأضداد: الماء والنار شهادة حية على طلاقة القدرة الإلهية، وعلى صدق القـرآن الكـريم، وصدق الرسول ﷺ.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى:٤/ ٣٣٤، (باب ركوب البحر لحج أو عمرة، حديث رقم: ٨٩٢٦.

(٢) نشرت جريدة ديلي ميل البريطانية أن العلماء قد اكتشفوا بحرا هائلا على عمق ٤٠٠-٦٠٠ كيلومتر تحت سطح الأرض، أي تحت الطبقة الثالثة من طبقات الأرض. هذا البحـر يحوي كمية من الماء تعادل ثلاثة أضعاف الموجود على سطح الأرض... هذا الاكتشـاف قدمه العلماء في آذار/مارس ٢٠١٤.

الحديث السادس

عن أبي ذر الغفاري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ (...يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ) (١)

الإعجاز العلمي في الحديث:

هذا الحديث يصف لنا وبدقة متناهية الملامح الكبري للكون، فيصف شكله بأنه كـ(الحلقة)، وهذا يتطابق تماما مع ما توصلت إليه جهود علماء الفلك المحدثين.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف.

من الملاحظ أن النبي ﷺ هيأ العقول لاستقبال تلك الحقيقة العلمية التي وردت في هذا الحديث عن طريق التعبير بأسلوب قصر طريقه النفي والاستثناء، ومعلوم أن هذا الطريق من أكثر الطرق دلالة على توكيد المعنى وتقريره، ويستعمل فيما يجهله المخاطب، وينكره، أو يشك فيه، يقول الإمام عبد القاهر: " وأما الخبر بالنفي والإثبات... فيكون يُنْكِرهُ المخاطَبُ ويَشُكُّ فيه"(٢)، ومعلوم علم اليقين أن الصحابة – رضوان الله عليهم – لا ينكرون كلام الرسول ﷺ ولا يشكون فيه، بل يتلقونه بالقبول التام والتسليم الكامل، كتلقيهم للبديهيات والمسلَّمات التى لا يمارِي فيها أحد، لكن ما حمل النبي ﷺ على توكيد كلامه هو شدة اعتنائه بما يصدر عنه من حقائق لا ما لمحه من شك أو إنكار، ومعلوم أن الحقائق والمسلَّمات والبديهيات كثيرا ما تأتى

---

(١) صحيح ابن حبان: ٢/ ٧٦، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظ، حديث رقم: ٣٦١.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٤.

العبارة عنها فى أسلوب مؤكد؛ لمزيد الحفاوة بها والعناية بشأنها، وحتى تكون وثاقتها فى طريقة البيان عنها مناسبة لوثاقة معانيها، وقوة العبارة مناسبة لقوة المعنى وسداده ورجاحته واستقامته؛ فتقف تلك الحقائق على ممر الزمان شامخة راسخة لا تهتز ولا تتبدل ولا يعتورها شك، ومما زاد الحاجة إلى هذا التعبير علمه ﷺ أن ما سيخبر عنه هو أمر من الأمور الغريبة التي لا علم لأصحابه بها، يقول الدكتور أبو موسى: " هناك مواقع للنفي والاستثناء لا يفسرها حال المخاطب، ولا يفسرها حال المتكلم، وإنما يقال فيها: إن النفي والاستثناء جاء لمحض التوكيد والتقرير... وإفراغ الحقيقة في قالب متين موثق لتقريرها، وتوكيده في النفوس بهذه اللهجة الحاسمة"(١)، وكأن النبي ﷺ يحث تلك الأمة إلى أن ترفع أبصارها نحو السماء معملة عقولها بغية التعرف على هذه الحقائق الموجودة يقينا في الكون.

وعبر بقصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا؛ لأن النفي فيه عام ومطابق للواقع، حيث قصر شكل السموات السبع مع الكرسي على صفة تشبه صفة الحلقة، وقصر حجم السموات بالنسبة للكرسي على حجم يشبه حجم الحلقة بالنسبة للفلاة.

واستخدم النبي ﷺ في نفي هذا الأمر (ما) وهي أضعف من غيرها، فالنفي بـ(إن) آكد منها(٢)، وكأن النبي ﷺ يريد أن ينبهنا إلى أن هذه الحقيقة سيأتي عليها يوم وتكون واضحة ظاهرة بحيث لن يحتاج الكلام معها

---

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، الدكتور محمد أبو موسى: ١١٨، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨م.

(٢) معاني النحو. د. فاضل صالح السامرائي:: ٢ / ٢٠٠، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

حينئذ إلى توكيد، كما أن التعبير بـ(ما) فيه تناسق مع سياق المعنى؛ لأنها تؤدي لونا في التصوير بحيث لو استبدلت بغيرها لذهب بكثير من حسن الكلام وروعته، فالمد في (ما) وما فيه من ارتفاع يلفت النفس ويأخذ بالعقل إلى محل تلك الحقيقة التي يتحدث عنها النبي ﷺ فهي حقيقة علوية سماوية.

ومن عجيب النظم النبوي أنه جمع بين القصر والتشبيه فى إبراز حقيقة واحدة؛ حيث جعل المقصور مشبها والمقصور عليه مشبها به، على الرغم من أن "التقاط صفة دون سواها في القصر، إنما هو تحييد وتحديد، ونضج فني، يلتقط ماله خطر في تركيب العبارة، وبناء الموقف ويدفع ما لا بال له، وهو الصفات المنفية التي قد تتسرب من خلال الأوهام والخواطر لتشارك المثبت في الإثبات...، فكأن القصر بناء متكامل للمعنى، وتمييز له وإظهار."[1] وهذا يناسبه أن يكون المقصور عليه شيئا محددا مخصوصا، في حين أن التشبيه مثل توضيحي، و فَرْق بين تمثيل الشيء، وبين حقيقته، وكان من الممكن أن يكتفي البيان النبوي بالتعبير بأحد الأسلوبين، كأن يستعمل أسلوب القصر مفردا فيقول:(مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا حَلْقَةٌ مُلْقَاةٌ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ) أو أن يكتفي بالتشبيه فيقول: (السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ) إلا أن التعبير النبوي أراد أن يفاجيء السامع؛ ليبعث في النفس التفكير والتأمل فعبر بالأسلوبين متداخلين؛ حيث أتى المقصور مشبها، والمقصور عليه مشبها به، ولعل النبي ﷺ آثر التعبير بالتشبيه لأنه ﷺ يتكلم عن أشياء لا وجود لها عند السامع بل إنّ هذه الحقيقة العلمية التي جاء بها البيان النبوي تشتمل على أمور قد تصطدم ببعض ما شيده العقل البشري

---

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، أ.د صباح دراز: (٢٦) مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ه، ١٩٨٦م.

بقصور معرفته وحدود علمه وقت أن أعلن النبي ﷺ هذه الحقيقة العلمية؛ لهذا فإن البيان النبوي عمل على تعديل تلك الأمور، وحتّى تتغلغل هذه الحقيقة في أعماق قلوب من يسمعها كان من الطبيعي أن تحظى بأسلوب يتّسم بهزّ الوجدان وسرعة التأثير وتجلية الصورة، وذلك لتستبين للمتلقي، ويسكن مفعولها في أغوار النفوس، وتتحطم أمامها كل أوهام خاطئة؛ لهذا فقد اختار النبي ﷺ التعبير بالتشبيه ليتعاون مع أسلوب القصر في الكشف عن أغوار تلك الحقيقة؛ فإذا كان القصر قد أكد تلك الحقيقة الخفية وغرسها في العقول، فإن التشبيه نقل المعارف الخفية عن حواسنا من عالم المعقول الخفيّ إلى عالم المحسوس الجلي، ومعلوم أن التشبيه من أقدر الأساليب على هذا الأمر.

وقد اشتمل هذا التشبيه على أسرار بلاغية جمّة، حيث كشف عن بيان هيئة السموات و مقدار حجمها في آن واحد، وهذه أمور خفيت على بني البشر في عهد النبي ﷺ إلا أن النبي ﷺ نقلها لأصحابه بطريقة أحدثت تشوقا وأنسا؛ لأنه من المعلوم أنّ النفس تستأنس بالشيء إذا أُخرِج من الخفاء إلى الجلاء، كما أنّها تستطيب ما أبرز في الحسّ، لأنّ المحسوس أقنع وأمتع وأسرع إلى القبول من المعقول.

ومن الواضح أن هذا التشبيه من قبيل التشبيه التمثيلي وهو من أبلغ وأوضح أساليب البيان، ومن أهم أغراض هذا النوع من التشبيه هو بيان صورة بصورة وجعل الخفي جليا، والمعنوي محسوسا، فأخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وكأن النبي يقول لنا: لو نظرتم لحال السموات السبع مع ضخامتها واتساعها وما اشتملت عليه من أجرام عجز العقل البشري أن يصل لمكنونها، مقابل حال الكرسي وتأملتم في تلك الصورة بكل أجزائها؛ لأيقنتم أنكم أمام حلقة صغيرة مطروحة في صحراء مترامية الأطراف لا يلقي أحد لها بالا، وراجع تعبير البيان النبوي تجد فيه ضربا من البراعة لا تجدها

إلا في كلام من كانت اللغة تكاشفه بأسرارها، وتبادره بحقائقها وخفاياها، حيث عبر عن الحقيقة العلمية بأسلوب معجز دقيق محكم من غير تعقيد ولا تكلف، ألفاظه قليلة مختارة بعناية شديدة، ومعانيه غزيرة مبسوطة، وذلك في قوله: (ملقاة) التي توحي أن تلك الحلقة مطروحة لا تكاد ترى أو ينشغل بها أحد، ولما لا ؟، وهي حلقة صغيرة في فلاة شاسعة؟!، ثم تأمل التعبير بقوله: (أرض فلاة) حيث أتى بالأرض نكرة؛ ليدل على أن حجمها بلغ حدا يصعب الوقوف عليه والإحاطة به، ووصف الأرض بأنها فلاة أي: الأرض الواسعة المقفرة، وهذا الوصف يزيد من مقدار الاتساع الحاصل من تنكير الأرض، ويزيد – أيضا – من المعنى المستفاد من كلمة (ملقاة) فمن يسير في فلاة مترامية الأطراف لا يشغله حلقة ملقاة، فكما أن تلك الحلقة لا تمثل شيئا بالنسبة للصحراء، فإن السموات بعظمتها لا تمثل شيئا بالنسبة للكرسي، بل إن السموات بما فيها من جمال وإجلال إذا رأها الناظر مجتمعة مع الكرسي لم يلق لها بالا من عظمة الكرسي وبهاه، وهذا الأمر في حد ذاته إعجاز في طرق التعبير؛ لأن التشبيه التمثيلي هنا عمل عمل السحر في تأليف المتباينين، فجعل من المعاني المتمثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة وأنطق الأخرس وأعطى البيان من الأعجم وبث الحياة في الجماد، وجعل الشيء قريبا بعيدا، وكشف لنا أن ما لم نبصره من الخلق أعظم مما أبصرناه، في حسن نظم وعذوبة لفظ وكثرة فائدة، وصحة دلالة.

والعجيب هنا أن النبي ﷺ أعطانا جزءا سيصل إليه العلم؛ ليؤكد من خلاله حقيقة لن يستطيع أن يصل إليها العلم، حيث أثبت العلم أن السماوات محيطة ببعضها إحاطة كاملة من جميع الجوانب وقد استنتج العلم هذا الأمر عن طريق الوقوف على شكل الأرض، وما لاحظه العلم من أن السماء الدنيا تحيط بالأرض إحاطة كاملة، وعليه فإن السماء الثانية تحيط بالأولى؛ وهكذا،

ثم يؤكد النبي ﷺ أن العرش كذلك، وهذا ما يعجز عن إدراكه العلم بأجهزته مهما حدث فيها من تطوير، إلا أن النبي ﷺ أخبر عنه منذ زمن بعيد، كما أن التعبير بكلمة (حلقة) فيه من دقة التعبير ما لا يضاها ولا يستطيع أحد أن ينكره، فهو وصف عجيب دقيق يحمل بعضا من دلائل النبوة ولمحة من لمحات إعجاز بيانه، حيث إن العلم الحديث أكد وأثبت على أن الكون كله كالحِلَق، وأن للحلقة قدرة على التماسك والجذب والتوازن ما لا يتوفر في سواها، وعليه يكون التعبير النبوي بـ (حلق) تعبير فضائي دقيق.

المبحث الثاني

من بلاغة التعبير النبوي في أحاديث الطب الوقائي

مدخل:

المتطلع لأحاديث النبي محمد ﷺ يجده ﷺ قد سن الكثير من السنن للوقاية من الأمراض، وحث الناس على اتباع هذه السنن من خلال توجيهاته ونصائحه التي اشتملت على ثروة طبية من خلال معطيات وقائية ينبغي على من سمعها أن يلتزم بها للوقاية من المرض والضرر، ويأتي العلم الحديث معلنا أن ما أخبر عنه الصادق الأمين يتطابق تمام التطابق مع نتائج أبحاث العلماء وما توصلوا إليه، ومن المؤكد أن ما أخبر به العلم ليس إلا غيضا من فيض السنة النبوية المشرفة.

وفي هذا الجزء سيتناول البحث التعبيرات النبوية في أحاديث اشتملت على أسس للطب الوقائي للوقوف على بلاغة هذه التعبيرات، وإبراز فصاحتها، ودقة أسلوبها، وإحكام تراكيبها، وبيان مناسبتها مع ما توصل إليه العلم الحديث من حقائق علمية.

مفهوم الطب الوقائي:

هو علم المحافظة على الفرد والمجتمع في أحسن حالاته الصحية عن طريق مجموعة من التعليمات والإرشادات والإجراءات الوقائية التي تتخذ لوقاية الإنسان من الأمراض قبل وقوعها، ومنع انتشار العدوى إذا وقعت[1].

(١) الطب الوقائي في الإسلام، د/ أحمد شوقي الفنجري: ١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

الحديث الأول

١ــ عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكْلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»(١).

وجه الإعجاز العلمي الطبي في الأحاديث النبوية الشريفة:

أثبت العلم الحديث أن هناك عددا كبيرا من الأمراض التي تهدد صحة الإنسان مرتبطة بالسمنة الناتجة عن الإفراط في تناول الطعام، وقد أكدت البحوث العلمية أن للبدانة عواقب وخيمة على جسم الإنسان؛ إذ إنها تمثل خللا في التمثيل الغذائي يؤثر في أجهزة الجسم، وبالذات القلب، حيث تحل الدهون محل بعض خلايا عضلة القلب مما يؤثر بصورة مباشرة على وظيفته، وهذه الأحاديث تتفق مع نتائج تلك الأبحاث، وتعد علامة بارزة في حفظ صحة الجهاز الهضمي، وبالتالي وقاية الجسم كله من التسمم الذاتي الذي ينشأ عن التخمة وامتلاء المعدة وتحميلها فوق طاقتها من الأغذية الثقيلة.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف:

يعد هذا الحديث قمة من قمم الإعجاز الصحي، والطب الوقائي، والنظام الغذائي، فهو من معجزات الرسول ﷺ وجوامع كلمه، وحكمته العالية، وهذا النظام الذي وضع النبي ﷺ قواعده يعتبر أساسا للحياة البشرية إذا أراد الإنسان أن يعيش سليما معافى من الأمراض، ولقد أشار النبي ﷺ في هذا الحديث إلى عدة حقائق مستخدما تعبيرات موجزة واضحة موجهة إلى الهدف يوقعها في حاق موقعها، حيث لا يدل على معناها غيرها في المقام

---

(١) (حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) سنن الترمذي: ٤/ ٥٩٠، بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ كَثْرَةِ الأَكْلِ، حديث رقم: ٢٣٨٠.

الذي وضعت فيه، ومن هذا ما صدر به النبي ﷺ كلامه الشريف (ما ملأ) حيث عبر بحرف النفي (ما) دون غيره؛ لأن النبي ﷺ يهدم عادة كان ظنّ العقل البشري خلافها، إذ إنه من المعلوم أن الجسد يتقوى بالغذاء الذي مصدره الطعام، فكان المعتقد السائد أن كثرة الأكل مفيدة وليست ضارة؛ وكانوا يعتبرون الإفراط في تناول الطعام وما يتبعه من بدانة من سمات الثراء والنعمة، ومما يتباهي به؛ لهذا كانوا يتسابقون في ملء البطون بالطعام والشراب، وظل هذا المعتقد سائدا إلى عهد قريب، ففي إنجلترا يتحدث الطبيب تشين عن عقيدة البروتستانت في الإفراط في الطعام والشراب، فيقول:" لست أدري ما عليه الأمر في البلدان الأخرى، ولكن نحن البروتستانت لا نعتبر الإفراط في تناول الطعام مؤذيا ولا ضارا، حتى إن الناس يحتقرون أصدقاءهم الذين لا يملأون بطونهم عند كل وجبة طعام"(١) ولما كان هذا هو المعتقد السائد بين الناس، والنبي ﷺ أراد أن يغيير هذا المعتقد فسلك في المعاني مسلكا دقيقا؛ حيث صدر كلامه بالنفي معبرا بـ(ما)؛ لأنها في الغالب تستعمل في الرد على قول أو دعوى، بخلاف (لم) التي تكون في الغالب من باب الإخبار وليست بالضرورة أن تكون رداً على دعوى، وهذا يفهم من قول سيبويه عندما فرق بين (لم، ولما، وما) فيقول: "إذا قال: فعل فإنَّ نفيه لم يفعل. وإذا قال: قد فعل فإن نفيه لمَّا يفعل. وإذا قال: لقد فعل فإنَّ نفيه ما فعل. لأنه

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي البكري الشافعي (المتوفى: ١٠٥٧هـ):٤/٤٧١، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

كأنه قال: والله لقد فعل فقال: والله ما فعل"[1]؛ لهذا كانت (ما) أنسب من غيرها؛ لأنها تصور الواقع الذي يسعى النبي ﷺ إلى تغييره، كما أنها تكشف عن التدافع بين شهوة الإنسان للطعام، وبين ما يجب أن يلتزم به.

وآثر التعبير النبوي التعبير بصيغة الخبر في (ما ملأ) دون الإنشائي؛ حيث كان من الممكن أن يأتي في صورة النهي الصريح، ولعل الغاية من ذلك هو إخراج هذا النصح النبوي في صورة الشيء الذي أصبح واقعا لا خلاف فيه، فطالما أن المصطفى ﷺ أخبر عنه فقد صار من الثوابت المتحققة يقينا، وهذا أنسب مع طبيعة هذا الإرشاد الذي جاء ليغير واقعا أو يبدل عادة.

ونجد أن النبي يرفع حدة التحذير، فبعدما استعمل (ما) بما فيها من إطلاق صوت يوحي بمطلق النفي، أتي بكلمة (وعاء) التي انتخبت بذوق واستعملت بحذق فاستطاعت أن تدل بمعناها ومبناها على سيل متدفق من المعاني، فأتى بها نكرة؛ لأنه يريد معنى العموم فيكون المعنى: أي وعاء، وفي تعبيره عن الجهاز الهضمي بالوعاء، تشبيه دقيق، له دلالة عميقة مقصودة؛ لأن الوعاء هو الشيء الذي تتجمع فيه الأشياء وتستقر فيه وتحجز لحين التصرف فيها، ومعلوم أن الطعام يتجمع في الجهاز الهضمي ليمكث ويتجمع فيها فترة تختلف حسب نوع الطعام ومدة هضمه، ثم يتم توزيعه إلى أنحاء الجسم عبر الدم.

واستعمل النبي ﷺ أسلوب التفضيل (شرا) الدال على حقيقة المفاضلة القائمة على المشاركة والزيادة؛ ليدل على أن الفعل المنهي عنه ليس من مطلق الشر فحسب، وإنما هو من أعلى دركاته مغبة، كما دل على أن ملءَ الأوعيةِ لا يكون إلا في الشر؛ لأنه " لا يخلو من طمع أو حرص على الدنيا وكلاهما

---

(١) الكتاب لسيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، ١١٧/٣، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

شرّ على الفاعل"[١]، ثم يعلن أن أشر هذا الشر هو ملء البطن؛ لأن ملء الأوعية قد يكون له عائد دنيوي على الإنسان، أما امتلاء البطن فيفضي إلى فساد في الدين والدنيا، فيكون شرا من غيره، إذ إنه يؤدي إلى " فساد القلب وكسل الجوارح عن الطاعات وتحركها في الشهوات"[٢] "وَيُفْضِي إِلَى البَطَالَةِ وَالمَعْصِيَةِ"[٣] فهذا فساد الدين، أما فساد الدنيا فقد تحقق يقينا في العصر الحديث حيث اكتشفت أمراض خطيرة ومهلكة وفتاكة لا تحصى ولا تعد، سببها الإفراط في تناول الطعام[٤]؛ لهذا حرص النبي ﷺ على التعبير بـ (شر)؛ لأن معنى المفاضلة فيها حاصل بأصل مادتها، كما هو حاصل بصيغتها فكان التفضيل بها تفضيلًا على تفضيل.

وفي التعبير بـ(البطن) دون غيرها كـ(المعدة) ما يدل على الدقة المتناهية في مراعاة أسرار ودقائق ألفاظ اللغة؛ لأن هناك فروقا دقيقة بين المعدة والبطن، لعل هذه الفروق لم تتحدد إلا مع تقدم العلم، فالبطن هي المنطقة الواقعة بين الصدر ومنطقة الحوض، وتضم عددا من الأجهزة كالكبد، والبنكرياس، والكلى، والمستقيم، والمرارة، والطحال، والامعاء، والمعدة،

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين:٤/٤٧١.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم الجوزية(متوفى: ٧٥١هـ): ١٣، راجع أصوله د/ عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر بيروت، بدون طبعة.

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، لمحمد بن عبد الهادي التتوي، أبي الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ): ٢/٣٢١، دار الجيل – بيروت، بدون طبعة.

(٤) وقد عد العلماء عددا من هذه الأمراض في كتبهم يراجع، الطب الوقائي للمحافظة على الصحة العامة، د/ عبد الباسط محمد السيد، ١٤٧، مكتبة ألفا، مصر، ٢٠٠٥م، ١٤٢٦هـ

ومعظم عمليات الهضم تحدث في أجهزة البطن، أما المعدة فهي إحدى الأجهزة التي تقع داخل البطن، وتشارك بشكل كبير جدا في عملية الهضم، والشر الذي يتحدث عنه النبي ﷺ ليس ناتجا عن مجرد امتلاء المعدة فحسب، وإنما هو نتيجة تراكم الدهون داخل الأجهزة الموجودة في البطن، وحدوث السمنة المفرطة التي تتسبب في أمراض كثيرة جدا كشف عنها العلم الحديث، وهذا يجعل الذم المستفاد من (ما ملأ) ليس موجها إلى الطعام بشكل عام، وإنما موجه إلى الإسراف في تناوله بشكل دائم ومستمر، لحد يجعل الإنسان يعتاد أن يكثر من الطعام، ويتخذ الشبع عادة لدرجة أن بطنة بدأت تمتلأ بالدهون التي تضر بصحته، وتوهن قوته، أما من اضطر فملأ معدته مرة فهذا خارج عن الذم؛ لعدم حصول الضرر المذكور بالشبع مرة واحدة، لهذا فقد شرب سيدنا أبو هريرة لبنا بحضرة النبي ﷺ حتى قال: " والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا" ولم ينكر النبي ﷺ عليه ذلك لعلمه أن هذا من الأمور العارضة لدى سيدنا أبي هريرة.

ومن عجيب النظم الشريف أنه أتى في إحدى رواياته بقوله: (شَرّا مِنْ بَطْنٍ)، وفي رواية أخرى تجده يقول: (شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ) [1] فعبر مرة بـ(بطن) نكرة، ومرة أضافها للهاء، ولعل هنا أساسا من أسس الطب الوقائي في تغذية الأطفال، وهذا ما يغفل عنه البعض، حيث تجد من الأباء أخطاءً شائعة في تغذية أبنائهم منذ صغرهم عن طريق جعلهم يعتادون على ملء بطونهم، والحديث الشريف بروايتيه قد نبه الإنسان أن يأخذ حذره من نفسه عن طريق التعبير بكلمة (بطنه)، ونبه – أيضا – من يقومون بتغذية أطفالهم أن يتوخوا

(١) (حديث صحيح)، من حديث الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيَّ ﷺ المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٣٦٧، (كتاب الرقاق، حديث رقم: ٧٩٤٥)

الحذر منذ الصغر، فعبر بـــ(بطن)؛ لأن تربيتهم على الإسراف في الطعام منذ صغرهم تهدد حياتهم بالسمنة المبكرة وما يصاحبها من أمراض، ولعـــل مـــا يقوي هذه النظرة ختام الحديث في رواية بقوله:(فَثُلُثٌ لطعامهِ وَثُلُثٌ لشـــرابهِ وَثُلُثٌ لنفسهِ) [١] وفي رواية أخرى بقوله: (فَثُلُثٌ طَعَامٌ، وَثُلُثٌ شَرَابٌ، وَثُلُـــثٌ نَفَسٌ) [٢] فالأولى تشير إلى ما يجب على الإنسان تجاه نفسه، أما الثانية فتلمح من طرف خفي إلى ما يجب على الإنسان تجاه نفسه ومن يقوم على رعايتهم من أطفال، وقد أثبت العلم الحديث وأعلن أن مشكلة السمنة عند الأطفال تمثّل إحدى أخطر المشكلات الصحية العمومية وتتخذ هذه المشكلة أبعاداً عالميـــة، ومن المحتمل أن يظلّ الأطفال الذين يعانون فرط الوزن والسمنة على حـــالهم عند الكبر وأن يتعرّضوا، أكثر من غيرهم، لمخاطر الإصابة بالأمراض[٣].

وبعد أن أعلن النبي ﷺ هذا الأساس، أخذ يضع لنا أساليب من شـــأنها أن تقي الإنسان من هذا الخطر، فكشف بحسن رونق، وعذوبة لفظ، وصـــحة معنى عن المعدل الآمن الذي يجب علي الإنسان أن يتناوله في وجبته، وذلـــك بعبارة موجزة، فيقول: (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه)، وفـــي روايـــة:

---

(١) (حديث صحيح)، من حديث الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيَّ ﷺ، صحيح ابن حبـــان: ٤٤٩/٢، (ذكر الإخبار عما يجب على المرء من ترك الفضول في قوته رجاء النجاة فـــي العقبى مما يعاقب عليه آكلة السحت، حديث رقم: ٦٧٤)

(٢) (حديث صحيح)، من حديث الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيَّ ﷺ، صحيح ابن حبـــان: ٤١/٢، (ذكر الخبر الدال على أن المرء يجب عليه الإقلال من غذائه ولا سيما إذا كان معه غيره، حديث رقم: ٥٢٣٧).

(3) Bessesen DH (June ٢٠٠٨). "Update on obesity". J. Clin. Endocrinol. Metab. ٩٣ (٦): ٢٠٢٧–٣٤. PMID ١٨٥٣٩٧٦٩. doi:١٠,١٢١٠/jc.٠٥٢٠–٢٠٠٨.

(لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه) [1] فالتغاير في التعبير مرة بـ (أكلات) ومرة بـ(لقيمات) والتغاييرفي التعبير لا يوجد فيه تعارض بينهما البتة؛ لأن (أكلات، ولقيمات) كلمتان تغايرتا في اللفظ واتحدتا في المعنى، فالأُكْلة اسم للُّقْمة الأَكْلة والأُكْلة كاللُّقْمة واللُّقْمة[2] إلا أن التغاييرفي اللفظ هنا أدى إلى اكتمال في الصورة، فـ(لقيمات) من اللَّقْمُ الذي هو سُرعة الأَكل[3]، فيكون التوجيه النبوي قد اشتمل على توجيه النصح لمن يأكل بأن يكتفي بالقليل من الطعام سواء أكان تناوله للطعام بشكل سريع، أم بطريقة عادية، كما أن التعبير بلقيمات فيه تركيز على صورة المأكول وإرشاد إلى التقليل منه والتصغير من حجمه، والتعبير بأكلات فيه تركيز على صورة الحدث، أعني الأكل، وبهذا تتوافق الروايات لتدل على أن النصح النبوي اشتمل التقليل من مرات الأكل ومن المأكول نفسه.

وقوله: (بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ لقيمات يقمن صلبه) يعد كناية عن المعدل الذي يحتاجه الناس جميعًا من السعرات الحرارية الناتجة عن تناول الطعام ويحفظهم من السُّقُوط أو الهلاك، وهو ما يعرف في العصر الحديث بمسمى التوازن الغذائي بين الطاقة المستهلكة، والطاقة التي يتناولها الإنسان من خلال الطعام، وهذه المعادلة إذا حققها الإنسان وقى نفسه من الأمراض الناتجة عن السمنة، ونعم بالعافية، والعجيب في التعبير النبوي أنه بين أن كل إنسان يحتاج

---

(١) (حديث صحيح) من حديث الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ.سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ): ٤٤٨/٤، بَابُ الِاقْتِصَادِ فِي الْأَكْلِ وَكَرَاهِيةِ الشِّبَعِ، حديث رقم،٣٣٤٩) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٢) لسان العرب مادة: (أ كـ ل)

(٣) السابق: مادة: (أ كـ ل)

قدر معين من السعرات الحرارية التي يستخدمها في الحركة، وتمكن جسمه من القيام بالوظائف الحيوية، إلا أن حاجة الإنسان للسعرات يختلف من إنسان لآخر، حسب الظروف التي تحيط به كالحالة النفسية، وطبيعة العمل، فأصحاب الأعمال الشاقة يختلفون عن غيرهم وهكذا...؛ والذي يكشف عن ذلك التعبير النبوي الشريف بـ(لقيمات)، وفي رواية (أكلات) اللتان وردتا بصيغة النكرة الدالة على الإبهام، وأتبعهما بجملة (يقمن صلبه) التي وقعت نعت لـ(لقيمات) أو (أكلات)؛ ليوضح بها الحد الذي يكشف عن هذا المبهم، وهذا الحد يتوقف على طبيعة الشخص، فكل شخص يحتاج قدرا من الطعام يختلف عن غيره بسبب اختلاف السن، والحجم، والطول، ونمط الحياة، وما يقوم به من مهام.

ولعل هذا هو ما ذكره العلم الحديث بلفظه ومعناه؛ حيث أثبت العلم الحديث أن الجسم يستخدم الطعام لتوليد الطاقة اللازمة للحركة والدفء والقيام بالعمليات الحيوية المختلفة، وهو ما يعرف بعملية الأيض، وهذه الطاقة اللازمة لتلك الوظائف تختلف من شخص لآخر، فهناك عدة عوامل تحدد التمثيل الغذائي الأساسي للفرد، منها حجم الجسم وتكوينه، الجنس، العمر، النشاط البدني، ولذلك فمن غير المنطقي تحديد كميات السعرات الحرارية اللازمة للعديد من الأشخاص، فالجميع مختلفون. (١)

وإذا كانت كلمة (لقيمات) قد دلت على أن كمّ الطعام الذي يحتاجه الإنسان ليس ثابتا بل هو متغير من شخص لآخر، فإنه – أيضا – من الممكن أن نستنبط منها عدد اللقيمات التي تدور حولها الكميات المختلفة، فهي لا تقل

---

(1) Metabolism and weight loss: How you burn calories,By: www.mayoclinic.org, Aug. 30, 2017

.(الأيض وفقدان الوزن: كيف تحرق السعرات الحرارية)

عن ثلاث لقيمات صغيرة ولا تزيد عن عشر لقيمات صغيرة، وهذا يفهم من دلالة صيغة جمع القلة التي تدل على العدد من ثلاثة إلى عشرة.

ومن ينظر إلى كلمة (لقيمات) يجد أنها نكرة أتت على صيغة التصغير، وجُمعت على جمع قلة، وهذا كله يدل على التحقير أو التقليل، وينبه على أن صلب الإنسان يقام بما قل من الطعام.

كما أن النبي ﷺ آثر التعبير بالمجاز المرسل في قوله: (لقيمات يقمن صلبه) حيث ذكر السبب وأراد المسبب؛ لأن الذي يقيم الصلب هو الطاقة الناتجة عن اللقيمات أو ما يعرف بالسعرات الحرارية، وهذا المجاز إذا كان به إيجاز في اللغة فإن به إيجازا في الزمن – أيضا – حيث طوى مسافات الزمن التي يستغرقها الطعام في رحلة الهضم ليتحول من لقيمات إلى طاقة تقيم الصلب، حتى لا يشغلك بشيء أكثر من الذي أراده ليتصل الطرف الثاني الذي هو إقامة الصلب بالطرف الأول الذي هو تناول اللقيمات، وبهذا يكون التعبير بالمجاز أكد على أن هذه اللقيمات مع قلتها كافية لإنتاج الطاقة اللازمة التي تحافظ على حياة الإنسان، وتمكنه من القيام بوظائفه اللازمة، فلا داعي للإفراط في تناول الطعام؛ لأنه ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة، وسبب من الأسباب التي تقوم بها الحياة وهذا من دقيق ضروب الصياغة.

ويعضد ذلك التعبير بكلمة (صلب) فالصاد واللام والباء تدل على الشدة والقوة، وسمي الظهر صلبا لقوته[1]، فيكون معنى (يقمن صلبه) أي: يمده بالطاقة التي تعطيه القوة اللازمة لكافة العمليات الحياتية المطلوبة.

وهذا التعبير النبوي يتوافق تماما مع ما تنبه إليه العلماء في عصور النهضة، فعندما تقدم العلم أخذ العلماء يطالبون الناس بالحد من الإفراط في

(١) مقاييس اللغة، مادة: (ص ل ب).

تناول الطعام وترك الانغماس في الملذات والشراب، فيقول أحد العلماء: " إن هذه المآدب المشينة التي هي واسعة الانتشار اليوم، لها من النتائج الضارة ما يوازي أعنف المعارك الحربية؛ لذلك يجب علينا ألا نأكل إلا بقدر ما هو ضروري لتسيير أجسامنا بشكل مناسب، وإن أية زيادة فيما نتاوله من كميات الطعام تعطينا سرورًا آنيّا.. ولكن علينا في النهاية أن ندفع نتائج ذلك مرضًا، بل موتًا في بعض الأحيان) [١].

ومن يراجع روايات الحديث المختلفة يجد أن هناك روايات عبرت بـ (بحسب ابن آدم) وروايات عبر فيها بـ(حَسْبُ الْمُسْلِمِ) [٢] ولعل سبب المغايرة في التعبير هو أنه ذكر ابن آدم؛ ليشير إلى أن هذا النصح الوقائي غير خاص بزمان معين ولا فئة معينة، وإنما يصلح لكل أدمي في كل زمان ومكان، ثم أتى برواية صرح فيها بـ (المسلم)؛ ليوضح أنه إذا كانت البشرية جمعاء مخاطبة بهذا الأساس الصحي ويمكنها الانتفاع بهذا الأمر فإن المسلم أكثر الفئات انتفاعا بهذا الأمر؛ لأنه يحقق به نفعا دنيويا كغيره في الحفاظ على صحته، كما أنه يحقق نفعا آخر لا يتحقق لغيره، فكما مر وذكر أن الشبع الشديد مدعاة لكسل الجوارح، والتقاعص عن العبادات، والمسلم يهمه أن يكون نشيطا محافظا على الطاعات والعبادات بخلاف غيره، لذا جاء ذكره في رواية خاصة به للتنبيه على تلك الخصوصية.

---

(1) Elaine N. Marib (1991)–Essentials Of Human Anatomy&Physiology, (10th Edition),P242.

. (أساسيات تشريح جسم الإنسان وعلم وظائف الأعضاء)

(٢) (حديث صحيح) من حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، يراجع المستدرك على الصحيحين: ١٣٥/٤، كتاب الأطعمة، حديث رقم:٧١٣٩.

ومن الملاحظ أن المسلم يتلقى كلام النبي ﷺ دون شك أو تردد؛ لذا ناسبه التعبير بـ (حسب) مجردة من (الباء) في صحبة التصريح بكلمة (المسلم)، ولما وجه الكلام لكل البشر(ابن آدم) أتى بـ(الباء) التي تفيد التقرير والتوكيد؛ لأن بينهم من لا يؤمن بكلام النبي ﷺ ويشك في صحته فجيئت بـ(الباء) لتأكيد هذه الحقيقة التي لم يكن معلومة ولا في الإمكان الوقوف عليها في عصر النبي ﷺ.

ومن يراجع نسق البناء في هذا البيان النبوي الشريف ويتأمل الدقة البالغة في تعبيراته يجد أن قوله: (يقمن صلبه) يعيد إلي المعنى شيئا من ملامح أوله؛ حيث قوله: (ما ملأ...) فإذا ضم قوله: (يقمن صلبه) إلى قوله: (ما ملأ...) يجد نفسه يغوص في بحر عميق لا قرار له من المعاني المتلاحقة التي يدفع بعضها بعضا، فلا يكاد يقف لها على ساحل، وإذا بالناظر يجد نفسه بين طرفي معادلة غذائية متكاملة تهدف إلى الحفاظ على صحة الإنسان، حيث يلحظ أن النظم الشريف لم يهدف إلى ترك الأكل بالكلية، ولا الأمر بتناول كميات غير كافية من الطعام تؤدي إلى سوء التغذية؛ لأن الطعام ليس شرا محضا، وإنما فيه خير لا غنى عنه البتة، فأتى التحذير مما يَحُفُّ هذا الخير من محاذيير يجب على الإنسان أن يتنبه لها بأن يكون واعيا يقظا عند تناول طعامه حتى يحقق منه الفائدة المرجوة دون أن يقع عليه ضرر أو أذى قد يدخل عليه من باب المبيحات، فتصير الأشياء التي من شأنها أن تكون مصدر خير وقوة سبيلا إلى الشر والفساد، ويتحقق ذلك بتناول القدر الذي يوفر له الطاقة الكافية التي يحتاجها الجسم للقيام بالعمليات الحيوية الأساسية التي يظهر أثرها في إقامة بنيانه وحمايته من الإصابه بسوء التغذية التي أثبت العلم الحديث أنها لا تقل خطورة عن السمنة المفرطة، فسوء التغذية هي الأخرى

تزيد من مخاطر التعرض للعدوى والإصابة بالأمراض المعدية المهلكة[1]؛ لذا كان الذم موجها من بداية الحديث لمن يملء بطنه؛ وعليه يكون التعبير بإقامة الصلب دعوة إلى أن يأخذ الإنسان كفايته من الطعام دون تقتير مهلك، أو إسراف مضر؛ وهذا يعد – أيضا – من سبق النبي ﷺ في الإعجاز العلمي، كشف عنه بعبارة تتسم بالإيجاز الشديد والكثافة الدلالية والسمو في المعاني من خلال إشارته إلى عملية التوازن الغذائي التي عدها العلماء من أساس صحة الجسم، وهذا يتطابق تماما مع الأمر القرآني الذي طرح رؤية طبية تحث على الأكل والشرب دون إسراف، وذلك في قوله تعالي: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [سورة الأعراف:٣١]، ومن منطلق اهتمام المصطفى ﷺ ورحمته بالإنسان، وذلك من معرفته بأحوال النفس البشرية، وخفاياها، وشهواتها، وعلمه بأن الإنسان قد يقع في موقف يضطره أحيانا إلى تناول قدر كبير من الطعام، فلم يغض النبي ﷺ الطرف عن هذا الجانب؛ فعمد إلى ضبط نهم النفس وكف جماحها؛ حيث وضع ضوابط متقنة ومعدلا دقيقا يجب ألا يتعداه الإنسان ليقي نفسه المتاعب والأمراض، وشدد عليه بإتقان شديد وبراعة نادرة تجلت في التعبير بقوله: (... فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لطعامه، وَثُلُثٌ لشَرَابه، وَثُلُثٌ لِنفسِهِ)، وهذا التعبير الشريف اشتمل على دقائق منها: استعمال (إن) التي وضعت للشك والدلالة على القلة، وكأنه يشير إلى أن هذا الفعل يجب ألا يكون من الأمور المتكررة، بل يجب أن يكون نادر الحدوث، فلا يقع إلا في الضرورة الملحة؛ لذا جاء بعده بقوله: (... كان لا محالة) دون أن يقول: (فإن اضطر) أو ما يشبهها، لأن التعبير الوارد يعد من محكمات النظم وبراعته في ضبط معاقد المعاني، ويبرز عبقريته ﷺ وبراعته الفائقة في اختيار ألفاظه

(1) Schaible UE, Kaufmann SH (2007), "Malnutrition and infection: complex mechanisms and global impacts". (سوء التغذية والعدوى: آليات معقدة وتأثيرات عالمية).

وتراكيبه ومراعاته الفروق الدقيقة التي يتطلبها السياق، حيث تجد الفعل (كان) يدل على تأكيد المعنى والتوغل فيه، ثم التعبير بـ(لا محالة) [١] الذي يفيد أن الإنسان يجب ألا يلجأ لهذا الفعل لمجرد الاضطرار، وإنما يفعله عندما يدور ويتحرك باحثا عن حيلة ومخرج فلا يجد، ويتأكد أنه قد انقطعت به الحيل، وفي رواية أخرى[٢] عبر بـ(لابد)[٣] بدلا من (لا محالة) ومعناها أن الإنسان يجب ألا يلجأ لهذا الفعل إلا إذا تأكد يقينيا أنه لا فراق من ذلك، أو أنه غير موسع عليه في أن يترك ذلك، وكيف يكون ذلك إلا إذا بلغ جهده في الخلاص من هذا الشر، ووراء هذا التعبير النبوي المعجز إشارة تحث الإنسان على أن يبحث عن مخرج لنفسه وحيلة تفرق بينه وبين هذا الفعل لما له من أضرار وقتية، ومستقبلية تعود على الإنسان، ثم يصرح النبي ﷺ بأسلوب علمي عباراته غاية في الإحكام ذات مدلول واحد لا تقبل الاحتمال أو التأويل، كلماته محددة، ألفاظه دقيقة، بعيدة كل البعد عن الضبابية أو الغموض، صرح فيه بنسب معينة واضحة يجب على الإنسان أن يراعيها لحماية نفسه من أي ضرر قد يقع عليه، فقسم المعدة إلى ثلاثة أقسام، وأخبر أن أكبر كمية من الطعام والشراب يمكن أن يتناولها المرء عند الحاجة الملحّة هي مقدار ما يملأ ثلثي حجم المعدة، وأخبر ﷺ أن ترك ثلث حجم المعدة خاليًا من الطعام والشراب ضروري لنَفَس الإنسان، وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقائق وأيدها، وتقسيم حجم المعدة إلى ثلاثة أثلاث: ثُلُثين للطعام والشراب، وثُلُثٌ للنَّفَس، لم يُذكر سُدًى في هذا الحديث، بل ذكره لحكمة بالغة تجلت بوضوح في هذا الزمان؛ حيث قسم علماء الطب – أيضا – المعدة إلى ثلاث مناطق، وذكروا أن مع كل شهيق وزفير في التنفس الطبيعي تدخل إلى الرئتين وتخرج منها

---

(١) يراجع مادة: (ح و ل) لسان العرب، ومقاييس اللغة.

(٢) (حديث صحيح) من حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، صحيح ابن حبان: ٧/ ٢٦٧.

(٣) يراجع مادة: (ب د د) الباء والدال في المضاعف أصل واحد، وهو التفرق وتباعد ما بين الشيئين، لا بد من كذا، فهو من هذا الباب أيضا، كأنه أراد لا فراق منه مقاييس اللغة مادة: (ب د د)

حوالي ٥٠٠ ملليمتر من الهواء، وبالنظر إلى هذا الكم و بين أقصى حجم للمعدة يمكن أن تصل إليه وهو حوالي اللتر ونصف اللتر، يتبين لنا أن حجم الهواء الداخل إلى الرئتين يمثل ثلث حجم المعدة،[١] وفي هذا إعجاز نبوي واضح؛ حيث حدد النبي ﷺ هذه القياسات في زمن لم تُتَح فيه هذه الأجهزة الدقيقة التي تقيس حجم الهواء الداخل إلى الرئتين، وتحدد أقصى حجم لتمدد المعدة، وقياس الضغط بداخلها.

كما أن امتلاء المعدة بالطعام يجعلها تأخذ حيزا كبيرا فتضغط على الحجاب الحاجز، فيضغط على الرئتين فتضيق مجاري النفس الذي هو ضروري لإصلاح الدم الفاسد وتحويله إلى دم صالح تقوم به حياة الإنسان، كما أن هذا الضغط يسبب صعوبة في عملية التنفس؛ لأن حركة الرئة تكون غير مرنة، ومن هنا يفهم من حديث النبي أنه يجب أن يترك الإنسان مساحة فارغة حتى تستطيع الرئة أن تتمدد بالشكل المناسب لإتمام عملية التنفس، الطبيعي الهاديء، وهذا يتطابق مع قوله: (فثلث لنفسه).

ومن لطيف ما توصل إليه الأطباء لعلاج السمنة وما يترتب عليها من أمراض أخرى، أنهم يقومون بإدخال بالون في المعدة، ينفخ بقدر ما يملأ ثلي المعدة، ويبقون ثلثيها فارغا للطعام والشراب، وقد وجد الأطباء والباحثون أن هذه الطريقة ذات أثر فعال في التخلص من السمنة وإنقاص الوزن، وبهذا فقد حصلت لهم موافقة السنة والهدي النبوي[٢].

---

(1) Essentials Of Human Anatomy&Physiology,,P242 .يراجع (أساسيات تشريح جسم الإنسان وعلم وظائف الأعضاء)

(٢) يراجع أحكام الأدوية في الشريعة الإسلامية، د/ حسن الفكي، ٧٩: ٨٨، دار المنهاج للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ه.

الحديث الثاني

عن جابر بنِ عبد اللّه ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ، لاَ يَمُرُّ بِإِنَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ غِطَاءٌ، أَوْ سِقَاءٍ لَيْسَ عَلَيْهِ وِكَاءٌ، إِلاَّ نَزَلَ فِيهِ مِنْ ذلكَ الْوَبَاء) (١)

وعند البخاري من حديث جابرٍ ﷺ أيضاً: «...وَأَوْكُوا قِرَبَكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا آنِيَتَكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شيئًا...)(٢)

وجه الإعجاز العلمي في الأحاديث النبوية الشريفة:

لقد أثبت الطبُ الحديثُ أن الأمراضَ المعديةَ تسري في مواسم معينة من السنة، بل إن بعضها يظهر كل عدد معين من السنوات، وحسب نظام دقيق لا يعرف تعليله حتى الآن، من أمثلة ذلك: أن الحصبة ، وشلل الأطفال ، تكثر في سبتمبر وأكتوبر ، والتيفود يكثر في الصيف، أما الكوليرا فإنها تأخذ دورة كل سبع سنوات... والجدري كل ثلاث سنين (٣)، وهذا يفسر لنا الإعجاز العلمي في قول الرسول ﷺ: (إن في السنة ليلة ينزل فيها وباء).

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف

هذا الحديث أخبر فيه النبي ﷺ عن أمر مهم بعبارات موجزة متماسكة مكونة من جمل متلاحمة انصهرت في بوتقة واحدة حتى صارت جملة واحدة ذات فكرة واحدة تنمو من خلال جمل الحديث المتتابعة التي يأخذ بعضها بحجز بعض حتى صار الحديث كله كأنه نفس واحد لا يتم الكلام إلا مع آخر

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ١٥٩٦، ١٢ – باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء، حديث رقم: ٢٠١٤

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٢١٣١.باب تغطية الإناء، حديث رقم:٥٦٢٣.

(٣)الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد كامل عبد الصمد، ٥٥، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٧م.

لفظة فيه، ولأهمية هذا البيان النبوي وما اشتمل عليه من الإرشاد إلى بعض أسباب السلامة من الإصابة بالأمراض الفتاكة صدر بفعل الأمر (غَطُّوا)؛ الذي يحمل معنى النصح والإرشاد والحث والترغيب، وجاء بصيغة الأمر؛ لحث المخاطبين على هذا الفعل ولبيان أنه من الأمور المهمة التي يجب ألا يغفل عنها الإنسان لما فيها من دفع للضرر وحفظا للصحة، لذا جاء الفعل المأمور به مقرونا بعلته وما يحث عليه؛ فيقر في وجدان سامعه عن قناعة دون تردد أو تحير، ويكون أدعى للامتثال به وقبوله وسرعة تنفيذه، بالإضافة إلى ما يحدثه من تلاؤم في تراكيب الكلام حتى يجعله آخذا بعضه بحجزة بعض.

ولما كان هذا النصح من الأمور التي لا تقف عند زمن معين، بل هي من الإرشادات النبوية الوقائية التي تصلح لأي عصر من العصور جاء الأمر عاما وليس خاصا بالصحابة الكرام الذين سمعوا الحديث من النبي محمد ﷺ وإنما أريد به كل من يتأتى منه الفعل المأمور به، وفي ذلك زيادة في العناية بهذا الأمر، ومعلوم أن " تعميم الخطاب في صيغة الأمر دال على شرف المأمور به وفخامته"(١)

ولما كان من خصائص اللغة العربية الشريفة أن لكل كلمة من كلماتها خاصية تتميز بها عن أختها في بعض معانيها، فقد جمع النبي ﷺ بين كل مفردة وما يناسبها، فجمع بين (غَطُّوا) و (الإِنَاءَ)، وَجمع بين (أَوْكُوا) و(السِّقَاءَ)، وهذا من مناسبة المعاني؛ لأن الآنية من طبيعتها أن تُغَطّى، أي: يوضع عليها ما يسترها، و الغين والطاء والحرف المعتل تدل على الغشاء

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري الدكتور أبو موسى: ٣١٠، مكتبة وهبة – مصر الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

والستر، يقال غطى الشيء واراه وستره[1]، ومن الملاحظ هنا أن الأمر النبوي الشريف يحثنا على تحري الشدة في إحكام غطاء الآنية، سواء أكان بها ماء أو طعام، ودل على الشدة بكلمة (غطّى) التي تحمل في طياتها دلالات من شأنها أن تصور حرص النبي ﷺ على تأكيد هذا الفعل، وهذه الدلالات تتمثل في المعنى اللغوي السابق، ومثل هذا الإحساس يتدفق إلي السامع من بناء صيغة الفعل وجرس أحرفه؛ حيث ترى في صوت الكلمة صدى للمعنى المراد، وذلك عن طريق استعمال دلالة صوت (الطاء) الذي فرض حضورًا حاشداً يعبر عن المعنى، وقد جاءت (الطاء) – عين الفعل – مشددة لتكون أقوى في الدلالة على الطلب؛ إذ من المعلوم "أنهم جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام؛ وذلك لأنها واسطة لهما ومنكوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها...فلمَّا كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوة المعنى المحدث به"[2]، وبهذا يتعانق جرس الكلمة ودلالته الصوتية مع معناها وما توحي به من قوة؛ لتحقق الغرض المقصود من الأمر النبوي، وورد في رواية أخرى التعبير بـ (خَمِّرُوا)، وهذه الرواية تسير مع ما قبلها في الحث الشديد على الالتزام بهذا الأمر النبوي الشريف، إلا أنها أقوى في الدلالة على إحكام الغطاء؛ لأنها تدل على معنى التغطية وزيادة؛ إذ إن مادتها تدل على المخالطة والستر، وخامَرَ الشيءَ قاربه وخالطه[3]، كما أن بنائها ورد

(١) ينظر مقاييس اللغة مادة: (غ ط و) ولسان العرب: (غ ط ي)

(٢) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني: ١٥٧/٢،عالم الكتب – بيروت تحقيق: محمد علي النجار.

(٣) ينظر مقاييس اللغة مادة: (خ م ر) ولسان العرب: (خ م ر).

بتضعيف العين؛ لينسجم بناؤها مع معناها في الدلالة على أهمية هذا النصح النبوي، وأتى التعبير النبوي في رواية ثالثة بـ (وَأَكْفِئُوا الْإِنَاءَ) وهذه الرواية بها أمر ثالث، فيصير بين أيدينا ثلاثة كلمات (غطّوا) (خمّروا) (وَأَكْفِئُوا) إلا أنها متكاملة فيما بينها، فتعدد الروايات يستفاد منه تعدد المعاني، إذ كل رواية زادت معنى جديدًا، وبهذا اتسعت المعاني بتعدد الروايات، ويمكن الجمع بينهم بأن "اكْفُوهُ أي: اقْلِبُوهُ إِنْ كَانَ الإناء فَارِغًا، و خَمِّرُوهُ، أو غطوه إِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرٍ: " وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ "[1]، وبهذا يعلم أن الأمر النبوي بتغطية الآنية ليس مقصورا على وجود طعام بها، بل إن النصح النبوي يشمل كل الآنية سواء أكان بها طعاما أم كانت فارغة.

ويأتي الأمر الثاني (وَأَوْكُوا) مصاحبا (للسِّقَاءَ) للمناسبة بينهما؛ لأن السِّقاءُ جلدُ السَّخْلة إذ أَجْذَعَ ولا يكون إلاَّ للماء، والوكاء خيط يُشَدُّ به فَمُ السِّقاء أَو الوِعاء وقد أَوكَيتُه بالوِكاء إِيكاء إِذا شددته وهو رباط القِرْبةِ وغيرها الذي يُشد به رأْسُها، فلما كانت السقاء مصنوعة من جلد لين توضع فيها الماء كان لابد لفم هذا السقاء من رباط يشد به رأس السقاء لئلا يدخُلَها، أو يسقط بها شيء يفسدها.

ثم يذكر النبي ﷺ العلة من هذين الأمرين، فيقول: (فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ...) وصدر العلة بالفاء لتكون نصًا في التعليل ، فهي لعطف العلة على المعلول، وتصوغ من هذه الأمور بناء لغويا واحدا متماسكا،

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري: ٤/ ٤٧٤، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م. بتصرف.

وجاءت العلة مصدر بـ(إن) المؤكدة التي تقذف في قلب سامعها عناية رسول الله ﷺ بمعناها وتأكد حرصه على تثبيت ما دخلت عليه؛ لأنها تمهّد إلى أنّ كلاما مهمّا يأتي عقبها، فالصحابة ليسوا في حاجة إلى تأكيد؛ إذ إنهم غير مترددين ولا شاكين، إلا أن التوكيد أتى لبيان أهمية مضمون الكلام، كما أن فيه تنبيها للمخاطب إلى أن ما ألقي عليه من أمر من الأمور المهمة، فعليهم أن يصغوا إليه بكل جوارحهم، كما أن هذا التوكيد يظهر مدى مخافة الرسول ﷺ على أمته، ويجعل السامع يضع تلك المخاوف نصب عينيه فلا يغفل عنها، كما أن هذا التأكيد يتآزر مع صدر الحديث وما اشتمل عليه من تأكيد وحث شديد على فعل الأشياء المأمور بها.

ولما كانت العلة من الفعل المأمور به هي الخوف من الإصابة بالأوبئة وانتشارها، فناسبه التعبير بكلمة (سنة)؛ إذ إنه من المعلوم أن السنة تستعمل في الحول الذي فيه جدب وشدة، كما أن الطب الحديث أثبت الأمراض المعدية تسري في مواسم معينة من السنة، بل إن بعضها يظهر كل عدد معين من السنوات، وحسب نظام دقيق لا يعرف تعليله حتى الآن، وهذا يفسر الإعجاز العلمي في قول الرسول ﷺ: «إن في السنة ليلة ينزل فيها وباء»، أي أوبئة موسمية، وتأمل سخاء التعبير النبوي في الجملة الشريفة وما جمعه من ثراء علمي وضع في قالب موجز محكم، حيث جاءت (ليلة) نكرة لتدل على الإبهام،أي أن هذه الليلة مبهمة غير محددة، وفي هذا حث على التزام الأمر النبوي الذي صدر به الحديث في كل ليالي السنة، إذ لا يعلم أحد في أي ليلة ينزل الوباء ؟.

والتعبير بالفعل المضارع (يَنْزِلُ) بعث في الكلام حركة، فدل بزمنه المضارع على تجدد النزول وتكراره، فيكون المعنى أن هذا الوباء ليس مقتصرا على سنة دون أخرى، وإنما يتجدد نزوله كل عام، أو يكون المقصود

أن نزول الداء الواحد يتجدد عبر السنة في ليال مختلفة، ويحتمل أن يكون المقصود أن الأوبئة متعددة، ونزولها مستمر تباعا، وباء يتلوه أخر، وكل وباء ينزل في ليلة غير الأخرى عبر ليالي السنة، وهذا كله يتناسب مع التعبير بصيغة التنكير في كلمتي (ليلة)، و (وباء)، كما أنه يتناسب مع طبيعة الأمراض الموسمية التي منها ما يتكرر خلال العام، ومنها ما يظهر مرة واحدة في السنة لفترة معينة، ومنها ما يظهر على فترات متباعدة خلال سنوات.

كما أن التعبير بمادة (نزل) الدالة على الحلول، وهبوط الشيء ووقوعه، يتناسب مع الأمر بتغطية الآنية، أو إكفائها، أو ربط عنق السقاء حتى لا تسقط فيه الكائنات المسببة للأوبئة، كما أن مادة (نزل) فيها معنى الشدة، يقال: (النازلة) أي: الشديدة من شدائد الدهر، وهذا المعنى المعجمي للجذر يتناسب مع ما يمثله الوباء من شدائد وآلام، كما يتناسب مع معنى الجدب والشدة المفهوم من كلمة (سنة).

وأسند النزول للوباء على سبيل الاستعارة المكنية التي تفيد التشخيص، وهذا المجاز صبغ الصورة بصبغة حسية فجعل الوباء شيئا محسوسا يهبط ويحل، ويمكن حملها على أنها مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث عبر بالوباء وأراد سبب الوباء، فمن المعلوم حقيقة أن الوباء مسبب عن الجراثيم والميكروبات التي تصيب الإنسان، وهذا في حد ذاته يعد إعجازا مبهرا من النبي ﷺ إذ بين أن الأوبئة تتسبب عن أشياء حسية، تلك الأشياء هي الميكروبات أو الجراثيم مسببة الأمراض، وهذه الكائنات الدقيقة لم تكن معلومة حتى وقت قريب، حيث إن العلماء لم يتعرفوا على هذه الحقائق إلا بعد اكتشاف أجهزة التصوير الدقيقة.

وفي قوله: (يَنْزِلُ فِيهَا وَبَاءٌ) قدم التعبير النبوي الجار والمجرور على

المسند إليه؛ للاعتناء بالمقدم وإظهار العناية به، ومن يتأمل طريقة بناء معاني هذا البيان النبوي الشريف ووجوه ارتباط بعضها ببعض يجد أنها ترتبت بعضها على بعض فمهد السابق فيها للاحق، وبني اللاحق على السابق فحينما قال ﷺ (إن في السنة ليلة) اشتاقت النفس وتطلّعت إلى معرفة ما في الليلة؛ لأن هذا الإخبار مؤكّد ومنكّر، ومعلوم أن التأكيد يستميل المتلقّي ويستحوذ على قلبه، والتنكير مفيد للشيوع والإطلاق، وهذا أدعى إلى طلب الإصغاء لمعرفة ما أبهم، ثم أتبعها بتقديم العائد عليها (فيها) على الفاعل (وباء) فأحدث تنبيها وتوجيها للأنظار نحو تلك الحقيقة التي يدور حولها البيان، وأكدها وقررها في ذهن السامعين حتى لا يغفلوا عن آنيتهم ولا سقائهم ليلا فيتركوها عرضة لأشياء تحل بها فتفسدها، وعلاوة على الاهتمام والعناية اللذين أفادهما هذا التقديم فإنَّ هذا المسلك الأسلوبي فيه – أيضا – إثارة وتشويق للمتلقّي من شأنه أن يمهِّد قلب المتلقّي لمهمّة سماع ما أراد المتكلّم أن يوصل إليه من كلام، ويختلط ذلك بشغاف قلبه لمجيئه بعد ترقُّب، وتحصيله بعد طلب، فليس إخبارك الشيء غفلا كإخبارك بعد التهيئة والتنبيه، فالنبي ﷺ بنى كلامه من أول الحديث على التشويق، فصدر الحديث بأفعال أمر (غطوا الإناء)، (أوكئوا السقاء) أحدث تشويقا لعلة الأوامر السابقة، ثم أتي بقوله: (فَإِنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً) مصدرا بتوكيد وغير كاشف عن أصل العلة ومرادها، فازداد معه التشويق والترقب إلى معرفة ما قد يحدث في هذه الليلة المبهم شأنها، والتي يجب أن يحترز الإنسان لمخاطر قد تحدث فيها، ثم يأتي قوله: (يَنْزِلُ فِيهَا...) فيرتفع التشويق إلى ذروته، فيقرع الأذن بقوله: (وباء) فيستقر في النفس ويتعلق بالذهن وتكتمل به الفائدة من الكلام، ومما لا شك فيه أن هذا المسلك جعل الكلام أمتع وأرسخ عند سامعه، وناسب طبيعة الأمر الذي يتحدث عنه النبي ﷺ هذا الأمر الذي غاب عن إدراك أهل عصره وما به من إمكانات

تحول بينهم وبين الاطلاع على تلك الحقائق بشكل قطعي.

وفي التعبير بلفظ (وباء) ما يتناسق مع شدة التحذير الذي تضمنه الحديث ودعا إليه، وهذا التناسق والتناسب تحقق من مادة الكلمة(وبأ) فالوباء هو كُـلُّ مرضٍ شديد العدوى، سريع الانتشار من مكان إلى مكـان يصـيب الإنسـان والحيوان والنّبات، وعادة ما يكون قاتلاً كالطّاعون(١)، فمادة الكلمة نفسها فيها نوع من التحذير وشدة التخويف، كما أنه أتى به نكره؛ ليدل على تعدده؛ فهو ليس وباءً واحدًا معروفًا محددًا، بل هو وباء مختلف ينزل في ليال مختلفـة، ولهذا التعبير النبوي حكمة بالغة، وهي أن مثل هذا الإبهام النسـبي يتضـمنّ الحذر الشديد على الحفاظ على الطعام والشراب في كل ليلة، فعـدم تحديـد النبي ﷺ لليلة محددة أو وباء محدد كان لهدف تربوي جليـل، إذ النتيجـة الطبيعية لعدم معرفة هذه الليلة هي زيادة نشاط المتلقين واهتمـامهم بـالنص الوارد في الحديث، خوفا من أن يَحُلَّ أي وباء في أيّ ليل من ليالي السنة.

ومن العجيب أن النبي ﷺ ربط بين تغطية الأنية، وربط فم الأسـقية، وبين الحد من حدوث الأوبئة، لأن الآنية مصدر يتواجد به الطعام، والأسـقية مصدر يتواجد به الماء، فإذا أصيب الإناء أو السقاء بالعدوى كانت مصـدرا لنقل هذه العدوي لكل من يتناول الطعام من الإناء المصاب بالعدوى أو يشرب ماء من هذا السقاء، فينتشر الداء بين أفراد كثيرين لاستخدامهم مصدر واحـد ملوث، وهذا نص ما أعلنه العلماء في العصر الحديث؛ إذ يقولون: إن "العلـم الحديث اكتشف طريقة أخرى يمكن للجراثيم المسببة للأمراض أن تسبّب بهـا العدوى وهي من خلال الغذاء والماء الملوثين، وتسمح آلية النقل هذه بنشـر

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ): (مـادة: و بأ): ٣/ ٢٣٩٢، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

الجراثيم للعديد من الناس من خلال استخدامهم لمصدر واحد"[1].

ويستمر التعبير النبوي في تدرجه؛ ليستقصى المعنى ويكشف عن تلك العلة التي من أجلها صدر الحديث بتلك الأوامر، فيقول ﷺ واصفا الوباء بأنه (لاَ يَمُرُّ بِإِنَاءٍ...) وآثر النبي ﷺ هنا التعبير بالقصر مستخدما طريق النفي والاستثناء، ومعلوم أن هذا الطريق من أقوى طرق القصر، ولا يخفى ما وراء هذا التعبير من تقوية وتأكيد وقطع بنزول شيء من الوباء في الإناء المكشوف أو السقاء غير المربوط عنقه، ولعل إيثار التعبير بهذا الأسلوب هو أن الحديث يتناول معنى غريبا؛ حيث يصف حقيقة غائبة عن الأنظار بعيدة عن الإدراك قد يغفل عنها كثيرون، فناسبها التعبير بأسلوب يحمل جرسا ورنينا قويا يعمل على تفخيم الكلام وتعظيم شأنه فيظل عالقا بذهن المتلقي حتى يدفعه إلى الحفاظ على هذا النصح النبوي، كما أن التعبير بالقصر أحدث لفتا للأذهان وتشويقا للأسماع أوجد مزيد عناية واهتمام بالمراد وأدى إلى تثبيت المعاني وتمكينها في النفوس، فعندما يجد المخاطب شيئا منفيّا في بداية الكلام، تتطلّع نفسه إلى معرفة أسبابه، ويبقي المتلقي منتظرا ما يحكم به أو يحكم له، وعندما تأتي (إلاّ) الاستثنائية يزداد شوقه وترتفع درجة ترقّبه لسماع ذلك الشيء الذي سيقصر عليه الكلام. فإذا ما جاء ذلك زاد إعجابه به ووقع منه موضع العناية، وبالتالي تمكن من نفسه كل تمكن.

ولا يخفى – أيضا – أنّ التنكير الوارد في (إناء، وسقاء)، يتآزر مع التأكيد المستفاد من دلالات القصر، والذي يرشدنا إلى ضرورة الحرص على تغطية كل الآنية، والأسقية لصِيَانَتها مِنَ الْوَبَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ فِي لَيْلَةٍ مِنَ السَّنَةِ.

---

(1) Infectious diseases,(الأمراض المعدية)"www.mayoclinic.org", Retrieved in 1-12-2018

وفي قوله: (نزَلَ فِيهِ مِنْ ذلِكَ الوَبَاء) فالتعبير بالفعل الماضي ليدل على تحقيق النزول، وقدم فيه على (ذلك الوباء)؛ ليفيد الاختصاص؛ إذ إن الوباء لن ينزل إلا فيما ترك مكشوفا من الآنية، أو الأسقية.

وعبر بـ(من) الدالة على التبعيض للدلالة على أن جزءا من الداء هو الذي ينزل لا كل الداء، وهذا يشير إلى أن الداء إذا نزل فإنه يصيب أكثر من مكان في وقت واحد، ولا يكون وجوده منصب على بقعة واحدة ولا إناء واحد، وهذا ما تؤكده الشواهد.

وعبر باسم الإشارة (ذلك) مع أن المشار إليه في الحديث شيء غائب غير مشاهد، لكنه نزله منزلة الحاضر المشاهد؛ فأشير إليه باسم الإشارة تنزيلا لغير المشاهد منزلة المشاهد؛ ليجعل له صورة مجسَّدة أمام المتلقّي، فيستحضره في ذهنه، هذا بالنظر إلى حال من قيلت لهم، أما الآن فتجد أن العلم الحديث يكشف أن الوباء تحدثه كائنات لها وجود مادي يمكن رؤيتها بأجهزة معينة، وبهذا فالإشارة إليها أمر مقبول وممكن لأنها أشياء مادية.

ولعل التعبير باسم الإشارة للبعيد فيه دلالة على أن مسببات هذه الأوبئة بعيدة عن إدراك المخاطبين، وقد يكون لتعظيم المشار إليه وبيان خطره.

الحديث الثالث

(إذا سَمِعْتُمْ بالطاعون بِأَرْض فَلَا تدْخلُوا عَلَيْهِ، وَإِذا وَقع وَأَنْتُم بِأَرْض فَلَا تخْرجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ) (١)

الإعجاز العلمي في الحديث:

وضع رسول الله ﷺ قاعدة تعتبر من أساسيات الطب الوقائي، وهي قاعدة الحجر الصحي التي تعتبر من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية المدمرة، ولقد وضع النبي ﷺ ضوابطه ورسم أطره بأسلوب وجيز محكم بأفصح بيان وأوضح صورة، فمنع السليم من أن يدخل أرضا أصابها وباء، وكذا منع سكان البلاد التي أصابها وباء من الخروج من تلك البلاد، وهذا الأمر يعد إعجازا علميا؛ لأنه إذا كان منع السليم من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون مفهوماً بدون الحاجة إلى معرفة دقيقة بالمرض، لكن منع سكان البلدة المصابة بالوباء من الخروج وخاصة الأصحاء منهم يبدوا عسيراً على الفهم بدون معرفة واسعة بالعلوم الطبية الحديثة.

إلا أن الطب الحديث أثبت أن الأصحاء الذين لا تبدو عليه أعراض المرض في مكان الوباء هم حاملون لميكروب المرض وأنهم يشكلون مصدر الخطر الحقيقي في نقل الوباء إلى أماكن أخرى إذا انتقلوا إليها؛ لأنهم يتحركون ويختلطون بالأصحاء بلا حذر أو خوف فينقلون لهم جرثومة الوباء المدمرة، إذا فهم أخطر من المرضى الحقيقين لتجنب الناس لهم وبسبب اكتشاف هذه الحقيقة نشأ نظام الحجر الصحي المعروف عالمياً الآن والذي

---

(١) حديث صحيح،(مسند الإمام أحمد بن حنبل):٣٦/ ١٣٩، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

يمنع فيه جميع سكان المدينة التي ظهر فيها الوباء من الخروج منها كما يمنع دخولها لأي قادم إليها.

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف

صُدر البيان النبوي بأسلوب شرط (إذا سَمِعْتُمْ بالطاعون بِأَرْض فَلَا تدْخلُوا عَلَيْهِ)؛ لبيان أهمية الأمر الذي سيكشف عنه هذا الإرشاد النبوي الشريف، كما أنه يحمل السامع على متابعة المتكلم بوعي واهتمام للتطلع إلى الجواب؛ إذ إنه من المعلوم أن النفوس مجبولة على حبّ سماع النتائج، فإذا سمع الأمر بعد تلهف وتشوق تمكّن في القلب حقّ التمكّن.

ومن جمال التعبير النبوي هنا استعمال الفعل سمع وتعديه بحرف الجر (الباء) لتضمين (سمعتم) معنى (أخبرتم)، وهذا التضمين جعل السياق يتحمل دلالة الفعلين معا أحدهما: بالتصريح بالفعل، والثاني: بالتضمين والدلالة عليه بالحرف الذي يقتضيه، وهذا من سمت البيان النبوي الذي ينظم الحقائق بألفاظ قليلة، لكنها تشتمل على كثير من المعاني والحقائق والأسرار الجمالية، ولعل هذا التنوع في المعنى المفهوم من التضمين فيه دلالة على أن الإنسان إذا وصل إليه هذا الخبر بأي وسيلة من الوسائل حتى وإن كان بالسمع دون المعاينة، فعليه أن يأخذ حذره ولا يعرض نفسه لهذا الوباء؛ لأن فيه هلاكًا للنفس وإلقاءا في التهلكة؛ لهذا أتى بعدها بكلمة (أرض) نكرة للدلالة على العموم، وهذا يتناسق مع دلالة التعدد المفهوم من التضمين، وكأن المعنى: إذا وصلكم خبر الطاعون بأي وسيلة كانت، في أي أرض كانت فلا تدخلوا عليه، وهذا الأصل الأول من أصول الحجر الصحي الذي يطبقه العلم في عصره الحديث، وأصل أصيل في الطب الوقائي.

وتتجسد – أيضا – جمالية ألفاظ الحديث النبوي الشريف وبراعة الرسول ﷺ في اختيار ألفاظه، وتمكنه الرفيع في التصرف بمفرداته مع مراعاة

المقام وملاءمة السياق، قوله ﷺ: (فلَا تدْخلوا عَلَيْـهِ) ولـم يقـل: (فـلا تدخلوها) لأن المنهي عنه ليس دخول الأرض، وإنما النهي غرضـه تـوخي الحذر من الإصابة بمرض الطاعون، فمتى وجد المرض فالنهي عن الـدخول قائم، فإذا زال العارض زال معه النهي وأصبح دخول الأرض مباحا، ولعـل في ذلك أساسا ثانيا من أسس الحجر الصحي وهو أن المرض إذا زال وتأكـد القائمون على الأمر من ذلك فلا حرج من رفع الحجـر عـن تلـك الأرض والسماح للناس بدخولها.

ويكمل النبي ﷺ الشق الثاني من الحديث فيقـول: (وَإِذا وَقـع وَأَنْـتُم بِأَرْض...) ونلاحظ اختلاف التعبير عن أول الحديث ففي الشق الأول قـال: (سمعتم) وهنا قال (وقع) وهذا يشير إلى أنه إذا كان عدم الدخول إلى الأرض الذي أصابها الوباء موقوف على مجرد السماع، فإن البقاء في الأرض وعـدم الخروج منها لا يكون واجبا إلا إذا تحقق وجود الوباء، وهذا في حـد ذاتـه إعجاز علمي؛ لأن العلة من عدم الخروج هو احتمـال أن يكـون الشـخص الخارج محملا بمسبب المرض، والإصابة بمسببات المرض تحتاج أن يكـون الإنسان قد خالط المريض أو وجد في حيز قريب منه فعاين المرض وتأكد من وقوعه، ساعتها يكون هناك احتمال كبير لانتقال العدوى إليه.

وتأمل هنا قوله ﷺ: (فَلَا تخْرجُوا مِنْهَا) مغايرا لما في الشـطر الأول من الحديث، فلم يقل: (فلا تهربوا منه) على شاكلة قوله: (فلا تدخلوا عليـه)، والبيان النبوي هنا يؤكد بتعبيراته احتمال وجود الوباء لكل من وجد في تلـك الأرض الموبوءة وإن لم تظهر عليه أعراض المرض فقد يكـون المسـبب للمرض موجودا معه وما زال الميكروب في طور الحضانة التي تسبق ظهور أعراض المرض على الشخص المصاب، ساعتها سيكون فراره ليس فـرارا من المرض؛ لأن المرض قد تلبسه فكيف له أن يفر منه!، وإنما الفرار سيكون

مجرد فرار من الأرض التي وجد بها المرض، بل إن فراره سيصبح وسيلة لنشر المرض في بقاع أخرى من الأرض المجاورة فيتسع انتشاره ويصيب ألآف البشر حتى يصبح وباءً عاما، لذا جاء النهي بقوله: (فَلَا تخْرجُوا مِنْهَا)؛ كي يضمن انحصار المرض في تلك البقعة ويمكن السيطرة عليه.

ولضمان تنفيذ هذه الوصية النبوية العظيمة في وقت عجز العقل البشري على تقبلها ضرب النبي ﷺ سورًا منيعًا حول مكان الوباء، فجاءت صيغة المنع بصورة مخيفة ومرعبة، وجعل(الفار من الطاعون كالفار من الزحف) كما جاء الوعد مرغبا لمن التزم بالأمر فجعل ثوابه عظيما، حيث وعد الصابر والمحتسب بالبقاء في مكان المرض بأجر الشهداء، فقال ﷺ: (ومن صبر فيه كان له أجر شهيد)، وقال: (المقيم فيه الشهيد)، وقال: (والصابر فيه كالصابر في الزحف) وقال: (والمطعون شهيد).

ومن يتأمل هذا الحديث يجد أن الحديث يقدم لنا حكمة أدبية وأخلاقية عظيمة من النهي عن الخروج فرارا من الطاعون، تجلت هذه الحكمة في صورة تشبيهية رائعة شبهت الفار من الطاعون بالفار من الزحف، وكأن بهذا التشبيه يقول: إذا كان في الفرار عن الزحف تخل عن المسؤلية وترك الضعفاء وأصحاب الجروح دون نصير يحميهم أو يقف معهم، فكذا لو فتح باب الفرار لمن يظن أنهم أصحاء من الوباء فمن سيكون للمرضى يداويهم ويقضي حاجاتهم، ومن يتعهدهم بعد موتهم ويقيم ما لهم من حقوق أمرنا الإسلام بها، وهذا إلهام نافذ سديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات.

ونختم هذا الحديث بسؤال وجِّه للدكتور (جون لارسن) من قِبل هيئة الإعجاز العلمي: إذا كنتَ حاكماً على مدينة، وأُصيبت تلك المدينة بمرض وبائي خطير؛ أو ما يُسمى بالطاعون؛ فماذا تفعل يا دكتور؟

قال: سآتي بالجنود، وأضرب حصاراً على المدينة؛ لمنع الدخول إليها، والخروج منها.

قيل له: أمّا أن تمنع الدخول فقد علمناه، ولكن لماذا تمنع الخروج منها؟

قال: لأن الدراسات في الفترة المتأخرة كشفت لنا أنه عندما يكون الطاعون منتشراً في مدينة من المدن، أو منطقة من المناطق؛ فإن عدد الذين تظهر عليهم أعراض المرض تتراوح نسبتهم (ما بين ١٠ – ٣٠ %)

قيل له: والباقون من سكان المدينة ما بالهم؟

قال: هؤلاء الباقون يحملون الجرثومة في أجسادهم، لكن جهاز المناعة عندهم يتغلب على الجراثيم، فتبقى في الجسم، ولكنها لا تضره، فإذا بقي هذا الصحيح في البلدة التي فيها الطاعون فلا خوف عليه، لأنه ملقَّحٌ، ولأن عنده مقاومة من جهاز المناعة تدفع عنه المرض.

أما لو خرج من هذه المدينة – أو البلدة – فإنه يخرج حاملاً لهذه الجرثومة، فينقل ذلك المرض إلى مدينة جديدة، وقد ينشأ عن ذلك هلاك الملايين من البشر، بسبب خروج هذا المصاب...

قيل: إلى متى يستمر هذا الحصار المضروب على هذه المدينة؟

قال: إلى وقت يسير، حتى يتغير سلوك الجرثومة، بإضافة خصيصة وراثية جديدة، حتى تذهب فيها خصيصة العدوى التي تنتشر، وتنقل المرض إلى الآخرين. (١)

---

(١)السنة النبوية وحي، خليل بن إبراهيم ملا خاطر. ٧١/ ٧٢ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الحديث الرابع

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِى إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ ثُمَّ لْيَطْرَحْهُ فَإِنَّ فِى أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِى الآخَرِ دَاءً»(١).

الإعجاز العلمي في الحديث:

دل البيان النبوي على أن الذبابة الطائرة من حولنا تحوي في أحد جناحيها داء، وهذا الداء شفاؤه موجود في الجناح الثاني للذبابة نفسها، فإذا سقطت ذبابة في ماء فالحديث يرشدنا إلى غمس الذبابة في الماء حتى نتقي بمقومات الشفاء في أحد جناحي الذبابة ما في الجناح الآخر من داء، وهذا ما أثبته العلم الحديث(٢).

من بلاغة التعبير في البيان النبوي الشريف:

أول ما يطالع الناظر في هذا البيان النبوي هو أن النبي ﷺ بنى الحديث على أسلوب شرط أداته (إذا) التي تدل على تأكيد حدوث الفعل، وأتى فعل الشرط على صيغة الماضي؛ ليقوي هذا التأكيد الحاصل من الأداة، وفي استهلال البيان النبوي بهذا التعبير ما يجعل السامع منتبها لمضمونه حريصا على فهم ما اشتمل عليه من دلالات، كما أن اختيار التعبير الشرطي فيه تشويق للسامع ناتج عن ارتباط الجزاء بالشرط، فإذا سمع المخاطب الشرط أحدث في نفسه تشويقا للجواب وتهيأ الذهن لاستقباله، كما أن فيه دلالة على أن فعل الغمس المأمور به ليس على سبيل الإطلاق وإنما هو متوقف على وقوع الذباب في الإناء، ومن ثم فبناء الحديث على الشرط فيه تنبيه على أن الحديث ليس فيه دعوة إلى صيد الذباب عنوة ووضعه في الإناء، وإنما يذكرنا

---

(١) صحيح الإمام البخاري: ٧/١٤٠. باب إذا وقع الذباب في الإناء، حديث رقم:(٥٧٨٢).

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي ﷺ حمدي عبد الله الصعيدي: ٨٩٩.

الحديث بحالة معينة وهي سقوط الذباب في الإناء وما يجب على الإنسان أن يفعله في هذه الحالة بدلا من أن يرمي الطعام أو يهرق الشراب الذي أصابه الذباب فيضيع نعم الله خصوصا لو أن صاحب الماء أو الطعام كان في حاجة شديدة إلى هذا الشراب أو الطعام كأن كان لا يمكلك سواه، فكيف يصنع إذا وقع فيه ذباب ويؤكد ذلك إسناد الفعل (وقع) (للذباب).

كما أن المتأمل للتعبير النبوي يجد أنه ذكر حدث الوقوع، وأرشد إلى ما يجب أن يفعل حال وقوع الذباب في الطعام أو الشراب، وذلك في قوله: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ ثُمَّ لْيَطْرَحْهُ) كل هذا قبل أن يكشف للمتلقي عن السبب من ذلك الفعل أو أن يكشف عن الحكمة منه، وكأنه قصد بذلك الإثارة والإيقاظ والتشويق، عن طريق إضفاء قدر من الإبهام والغموض على السبب من وراء هذا الفعل، لتتطلع النفوس لمعرفة السبب وتتشوق إليه، فإذا علمت به نزل الكلام على نفس قد تهيأت لتلقي الخبر فتؤنس به ويجد عندها موقعا وحظا من القبول، وهذا يتناسب مع طبيعة الأمر وغرابته؛ إذ إنه يحتوي على حقائق علمية يعجز العقل البشري في زمان النبوة أن يدركها، لهذا جاء التفسير مصدرا بتأكيد (فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِي الآخَرِ دَاءً) ليناسب غرابة الأمر.

وتتجلى دقة التعبير النبوي وجمالياته في قوله: (فليغمسه) وتأمل موقع الفاء وما تفيده من السرعة، للإشارة إلى سرعة غمس الذبابة في السائل الذي سقطت فيه؛ وهذا يتوافق مع ما أقره العلم الحديث من أن الذباب إذا سقط في الماء أو نحوه من السوائل فإن الميكروبات الضارة تظل فترة عالقة على سطح السائل لوجود التوتر السطحي، فإذا غمست الذبابة خرجت مضادات تلك الميكروبات فقضت عليها قبل أن تتوغل في الشراب أو تحدث ضررا في مكوناته بأن تفرز سموما تختلط بالماء أو الطعام، ثم تأمل كلمة (يغمس) والتي

تأتي متوافقة تمام الاتفاق مع ما أقره البحث العلمي؛ حيث يـــرى العلمـــاء أن أفضل طريقة لاستخلاص المواد الحيوية المضادة من الذبابة يكون بغمسها في السائل، وكلما طال الغمس كلما تحققت الفائدة المرجودة أكثر، لأن إفراز أنواع البكتيريا النافعة أو الفطريات لا تتم إلا في وجود وسط يسمح بتقابـــل الـــداء والدواء وجها لوجه دون عوائق؛ ليتم الالتحام وعندها تقوم الكائنات المفيـــدة بالقضاء على الكائنات الضارة.

ولقد وجد أن المادة التي تقتل البكتيريا الضارة لا تتحـــرر مـــن الخلايـــا الفطرية إلا إذا امتصت السائل، وعند ذلك فإنه بواســـطة خاصـــية الضـــغط الإسموزي تنتفخ تم تنفجر، وتطلق محتوياتها، التي تعتبر كالقنابـــل، وتقـــوم بالقضاء على البكتيريا الضارة، وهذا كله تشير إليه كلمة (غمس) والعجيب أن من مدلولات الاغْتِماس أَن يُطِيل اللبُّثَ في الشيء[1]، وبهـــذا يكـــون التعبيـــر النبوي عبر عن تلك الحقيقة بكل أبعادها بكلمة واحدة ساعدت علـــى تحقيـــق المعنى المراد وتأديته في دقة تامة.

وورد في روايات أخرى (فامْقُلوه) بدلا من (فاغمسوه)، إلا أن كل رواية جعلت لكل صيغة مقاماً، لا يمكن لكل لفظة أن تؤدي وظيفة الأخرى، أو أن تقع في مكانها، وكأن النظم يقسم أقدار الكلام على أقـــدار المعـــاني، ويقســـم المعاني على أقدار المقامات، ومن يدقق النظر في روايات الحديث يجد أن هذه السمة ظاهرة؛ حيث إن النظم الشريف يعبر بـــ (الغمس) دائما مع (الشراب)، في حين أن (المقل) يأتي إذا لم يذكر الشراب أو حينما يصرح بالطعام، ولعل ذلك الاختيار النبوي جاء ليفرق بين إدخال الذباب في الماء وإدخاله في مـــادة ذات سمك أغلظ من سمك الماء، فالدفع في الماء لا يحتاج سوى الغمس؛ لأن

(١) لسان العرب مادة:(غ م س).

الماء يسهل فيه الدفع، أما غيره من الأشياء الأخرى كالأطعمة فإن الغمس لا يكفي وإنما يحتاج إلى مقل وهو أشد من الغمس، ومن يتتبع معنى المقل يجد أنه أقوى من الغمس، يقال: في مَقْل البحر أَراد في موضع المَغاص، ومَقْل البئر أَسفلها[1]، وامْتَقَلَ أي: غاص مِرارًا في الماءِ[2]، والتَّمَاقُلُ: التَّغَاطُّ في الماءِ حتّى يَجِيْءَ بالمَقْل معه وهو الحَصى والطِّينُ[3]، وهذه المعاني تشير إلى أن المقل فيه مبالغة في فعل الغمس لا مجرد غمر الشيء فحسب.

ونظراً لأنّ هناك علاقة بين دلالات الألفاظ و جرس أصواتها، فيكون التعبير بأصوات مختلفة عملية مقصودة تجعل من الصوت صدى للمعنى المنشود، فالصوت الضعيف يناسبه المعنى الضعيف، والصوت القوي يناسبه المعنى القوي، وإذا تأملت ذلك في (غمس) و (مقل) تجد أن دلالة التعبير بكل كلمة في سياقها واضحة على الرغم من أن أهل الحديث أرجعوا اللفظتين إلى معنى واحد، لكن البلاغة النبوية أعلى شأنا من أن يكون التغاير مجردا عن الفائدة؛ إذ من المعلوم أن هناك مناسبة بين اللفظ ومدلوله واستقلالية كل كلمة بحروف معينة يكسبها ذائقة صوتية وسمعية منفردة تختلف عما سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه مما يجعل كلمة ما دون كلمة – وإن اتحدا بالمعنى – لها استقلاليتها في الأداء والمعنى، وبالرجوع إلى حروف لفظة (غمس) تجد أنه يغلب عليها صفات الضعف، بخلاف (مقل) والتي اشتملت على حرف (القاف) الذي يوصف بأنه حرف مجهور قوي، في صفاته شدة،

---

(١) السابق مادة:(غ م س).

(٢)المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر ــ محمد النجار: (المقل)، دار الدعوة تحقيق / مجمع اللغة العربية

(٣) المحيط في اللغة–الصاحب بن عباد –(المتوفى: ٣٨٥هـ/٩٩٥م)، مادة: م ق ل.

وعليه يكون هذا التعبير اللغوي الدقيق من باب مقابلة اللفظ لما يشاكل صوته من الأحداث؛ حيث جاءت أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبرَّ بها عنها، فاختار الغمس مع الماء؛ لأن حروف الكلمة تميل إلى صفات الضعف، والإدخال في الماء سهل لا يحتاج إلى قوة، واختار المقل الذي تتوسطه (القاف) الصلبة؛ ليناسب الطعام، وهذا من الأمور التي امتازت بها بلاغة التعبير النبوي؛ حيث تجد توظيفا بديعا دقيقا لكلماته ليعبر بها عن المعنى المراد فتجد للألفاظ ظلالا تأخذ بك إلى المعنى المراد من أسهل واد وأخصر طريق، وبهذا تجد أن البيان النبوي؟؟؟.

وعبر بكلمة (كله) التي تفيد التأكيد؛ حرصا من النبي ﷺ من أن يواري السائل كل البعوضة؛ ليضمن انغماس الجزء الذي يحمل الدواء في السائل فيخرج منه البكتيريا النافعة التي تقضي على البكتيريا الضارة، خصوصا وأن الذباب إذا سقط فيما يؤذيه فإنه يقدم الجناح الذي به الداء كما في رواية الإمام أحمد: (فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء)، فأمر النبي ﷺ أن يغمس كله في الماء أو الطعام، ليضمن أن يغمس الشق الآخر – أيضا – فيقابل المادة السمية النافعة فيزول ضررها.

وتأمل استعمال حرف العطف (ثم) الدالة على التراخي والمهلة، وكأن فيها دعوة إلى التأني وعدم الاستعجال بإخراج الذبابة بعد غمسها، وهذا متوافق تماما مع ما أشارت إليه الأبحاث في أن أفضل النتائج من عملية الغمس تتحقق إذا تركت الذبابة مغموسة فترة في السائل بحيث تعطي فرصة للأنواع المفيدة من البكتيريا والفطريات بالخروج وإفراز المواد المضادة للسموم فتقضي على البكتيريا الضارة (الداء).

ومن يلاحظ كلمة شفاء، وداء في قوله: (فَإِنَّ فِى أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً وَفِى الآخَرِ دَاءً»، يجد أنهما نكرتين، والنكرة هنا أفادت التعدد، أي أن الشفاء

الموجود ليس نوعا واحد والداء ليس داءا واحدا، وإنما الداء متعـــدد، وكـــذا الدواء – أيضا – متعدد، ولعل هذا ما أخبرت عنه التجارب المخبرية مـــن أن أحد جناحي البعوضة يوجد عليه أنواع مختلفة من البكتيريا الضارة، والجناح الآخر يوجد عليه أنواع مختلفة – أيضا – من مضادات تلك البكتيريا، كما أن متأمل البيان النبوي يجد أن مجيء لفظة شفاء مقابلة للفظة داء يحاكي وضـــع البكتيريا السامة والمضادات المعالجة لها؛ إذ إن للبعوضة جنـــاحين متقـــابلين أحدهما يحمل الداء وآخر يحمل الدواء، كما أن التعبير النبوي تارة يعبر بكلمة (دواء) وتارة أخرى بكلمة (شفاء) ولعل هنا ملمحا علميا يلاحظ من طـــرف خفي، وهو أنه إذا كان أحد جناحي الذبابة يحمل بكتيريـــا مســـببة لأمـــراض مختلفة فإن الجناح الأخر يحمل مضادات لهذه الأمراض، وهـــذا يفهـــم مـــن التعبير بكلمة (دواء)، إلا أن التعبير بكلمة (شفاء) يحمل مع المعنـــى الســـابق أبعاداً دلالية أخرى، يجعل اللفظ فيه معنى زائد وهو أن تلك المضادات فوق أنها تستخدم في القضاء على الداء الموجود على الجناح الآخـــر فـــإن هـــذه المضادات – أيضا – يمكن استعمالها في شفاء أمراض أخرى، وهذا عين ما أثبته العلم الحديث.

وبهذا تجد أن تعبيرات هذا الحديث الشريف جمعت بـــين ســـعة الدلالـــة وغزارة المعنى مع اختصار عباراته، لتجد نفسك أمام بناء لغوي تميز بالدقة، وترتيب الأفكار حسب مقتضيات علمية دون الاعتماد على الخيـــال، وكـــأن معانيه ترى في ظاهر ألفاظه؛ لأن الغاية من ذلك هو مخاطبة العقل وحثـــه على التوصل إلى الدواء من مكمنه الذي لم يكن لعقول البشر في ذلك الوقـــت أن تتصور أن المخلوق الذي يحمل الداء هو نفسه مصدر الـــدواء، فجـــاءت عبارات الحديث فصيحة دقيقة محكمة ذات مدلولات واضحة وإشارات دقيقة، تؤكد أن المفردة في الحديث النبوي ذات قيمة بلاغية عالية، وتـــؤدي وظيفـــة محددة لا يمكن أن يكتمل المعنى بدونها، لذا تجد أن عددا كبيرا مـــن علمـــاء المسلمين دافعوا عن هذه الحقيقة الواردة في الحديث في وقت عجز العلم عن أن يقف على أبعادها أو أن يتحقق من صدقها.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من خـــتم الله برسالته جميع الرسالات، عليه من الله أفضل الصلوات، وعلى آله وأصـــحابه أتم التسليمات.

أما بعد..

فبعد هذه الجولة البلاغية الماتعة في رياض السنة العطرة مـــع بعـــض أحايث رسول الله ﷺ، التي تضمنت بعضا من مظاهر الإعجاز العلمـــي، آن للقلم أن يخط حصاد هذا التطواف، وأن يلم خيوطه وشجونه، في إشـــارة موجزة إلى أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الدراسة، وهـــى علـــى النحـــو الآتى:

١ــ الإعجاز العلمي في السنة النبوية يعد مجالا خصبا لعدد من الدراسات اللغوية وعلى رأسها علم البلاغة؛ لأن علم البلاغة يبحث في كل عبارة فيها إتقان وتدقيق.

٢ــ تعد الدراسات البلاغية مفتاحا من مفاتيح فهم الإعجاز العلمي وطريقا من الطرق الموصلة إليه.

٣ــ جاءت الإشارات العلمية داخل الأحاديث النبوية ممتزجة في سياقاتها بحيث تؤدي وظيفة ومعنى تستفيد منه الأجيال المتتابعة كل حسب مـــا تـــوفر لديه من معطيات العلم وأدواته.

٤ــ يعد علم البلاغة من الأدوات الكاشفة عن المناسبة بـــين الإشـــارات العلمية المذكورة داخل الحديث وبين مراد الحديث وسياقه.

٥ــ سلك التعبير النبوي الشريف في صياغته للحقائق العلمية مسلكا دقيقا عجيبا؛ حيث عبر عن تلك الحقائق في دقة علمية متناهية اتسمت بالشـــمولية والإحاطة في دلالتها، مع إيجاز معجز، حتى إنك لتجـــد العلمـــاء يســـتعملون

عبارات مطابقة بمعناها ومبناها لما ورد في البيان النبوي الشريف.

٦ــ كشفت بلاغة التعبير أن النبي ﷺ كثيرا ما ضمنت تعبيراته عن تلك الحقائق أمورا دقيقة جدا وليست مجرد أشياء سطحية.

٧ــ وظف النبي ﷺ في تعبيراته مقومات اللغة وبلاغتها في رسم أطر الحقائق الواردة في إشاراته العلمية، وذلك بالوقوف على أدق الألفاظ من حيث المبنى والمعنى والتركيب الصوتي.

٨ــ لوحظ قلة الصورة البيانية في الإشارات العلمية؛ لأن المعنى يحتاج إلى الطريق المباشر والواضح في التعبير.

٩ــ ما ورد من صور بيانية جاء لتقريب المعاني وتوضيح الأفكار، وإفهام المخاطب وإجلاء المراد والمساعدة على تقريب الحقائق والإشارات العلمية إلى الأذهان.

١٠ــ اعتمد النبي على أسلوب القصر في معان تتطلب دقة الضبط والتحديد، فضلاً عما كان في بعضها من غرابة اقتضت عبارة حاسمة رصينة قاطعة، ثم إعظام شأن تلك المعاني وتفخيم مضمونها.

١١ــ شاع أسلوب التأكيد في الأحاديث التي اشتملت على الحقائق العلمية من أجل تأكيد هذه الحقائق وزيادة في الاعتناء بها خصوصا وأنها من المعاني الغريبة التي لم تكن معهودة عند السامعين.

١٢ــ شاع استعمال الأساليب الخبرية في التعبير عن الحقائق العلمية؛ لأنه أسلوب يتوافق مع طبيعة الحقائق العلمية، والثوابت اليقينية. التي لا تقبل الشك أو الإنكار.

١٣ــ يمكن أن يستعين الباحث في علوم الحديث بالتطور العلمي في فهم الحديث ويجعل من المكتشفات العلمية الثابتة يقينا أداة من أدواته.

١٤ــ عند دراسة أحاديث الإعجاز العلمي يجب أن يفهم مــراد التعبيــر النبوي من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل الدارس النص ما لا يتحملــه وأن يكون فهمه في ظلال القرآن الكريم وقواعد اللغة وسياق النص.

١٥ــ يجب على دارس الحديث النبوي أن يجمع بين الروايات المختلفــة للحديث الواحد ويعمل فيها النظر؛ لأن الحديث يفسر بعضه بعضا.

١٦ــ شاعت أساليب التهيئة في الأحاديث التي وردت فيها إشارات علمية كـــ (الاستفهام، والقصر، والتأكيد...)؛ لتجعل العقول على استعداد لتقبل هذه الحقائق غير المألوفة في زمانها.

١٧ــ راعي النبي ﷺ في بيانه المشتمل على ملامح من الطب الوقائي الغرائز الإنسانية، وأحوال النفس البشرية فوضع لها بأسلوب معجز ضوابط متقنة دقيقة

١٨ــ تستطيع دراسة بلاغة الإعجاز العلمي أن تسهم في تقريب بعــض المعتقدات والحقائق الدينية من أفهام أهل العصر، عن طريق فهم النص وتأيده بمنطق العلم التجريبي.

المراجع

أولا المراجع العربية

١-القرآن الكريم.

٢-أحكام الأدوية في الشريعة الإسلامية، د/ حسن الفكي، دار المنهاج للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ه.

٣-إرشاد العقل السليم / أبو السعود العمادي (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤-أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، أ.د صباح دراز، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ه، ١٩٨٦م.

٥-الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، الطبعة السابعة، ٢٠٠٧م.

٦-الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د/ رضا بن أحمد صالح مكتبة العبيكان، ١٤٢١ه.

٧-الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أ.د/ عبد الله بن عبد العزيز، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار جياد للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٨-الإيمان لابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦

٩-البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لأبي القاسم برهان الدين الكرماني (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ) ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة بدون تاريخ.

١٠-البعث والنشور للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦.

١١-البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، الدكتور/ أبو موسى، مكتبة وهبة - مصر الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢-تاج العروس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.

١٣-الجنى الداني في حروف المعاني، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، تحقيق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

١٤-حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، لمحمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١١٣٨هـ)،دار الجيل - بيروت، بدون طبعة.

١٥-الخصائص لابن جني، أبي الفتح عثمان بن جني، عالم الكتب - بيروت، تحقيق: محمد علي النجار.

١٦-درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي (المتوفى: ٤٢٠هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م،

١٧-دلالات التراكيب دراسة بلاغية، الدكتور/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨م.

١٨-دلائل الإعجاز، الشيخ عبد القاهر الجرجاني (المتوفي: ٤٧١هـ)، تحقيق الشيخ: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٩-دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي البكري الشافعي (المتوفى: ١٠٥٧هـ)، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٠-السنة النبوية وحي، خليل بن إبراهيم ملا خاطر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢١-سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٢-سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق (المتوفى: ٢٧٥هـ)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٣-سنن الترمذي: محمد بن عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:الشيخ أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢٤-السنن الكبرى للبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد: الطبعة: الأولى ـ ١٣٤٤ هـ

٢٥-السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر

عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

٢٦-شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٧-صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (المتوفى: ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط،: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٢٨-صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري (المتوفى: 256هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩-صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج (المتوفى: ٢٦١ هـ)، دار الجيل ببيرت، وطبعتها مصورة من الطبعة التركية المطبوعة سنة ١٣٣٤ هـ.

٣٠-الطب النبوي، ابن القيم الجوزية(متوفى: ٧٥١هـ)، راجع أصوله د/ عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر بيروت، بدون طبعة.

٣١-الطب الوقائي في الإسلام، د/ أحمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٩١م.

٣٢-الطب الوقائي للمحافظة على الصحة العامة، د/ عبد الباسط محمد السيد، مكتبة ألفا، مصر، ٢٠٠٥م، ١٤٢٦هـ.

٣٣-القرآن والحديث، مقارنة أسلوبيّة، د/ إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، ١٤٢١ه، ٢٠٠٠م.

٣٤-الكتاب لسيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد

هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٥-لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.

٣٦-المحيط في اللغة-الصاحب بن عباد -(المتوفى: ٣٨٥هـ/٩٩٥م) .

٣٧-مدخل إلى كتابي الإمام عبد القاهر، للدكتور أبي موسى، مكتبة وهبة.

٣٨-المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد النيسابوري، المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠.

٣٩-مسند الإمام أحمد بن حنبل)، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١هـ)تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٤٠-معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.

٤١-معاني النحو. د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٤٢-معجم الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٤٣-معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٤٤-المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر

ـــ محمد النجار، دار الدعوة تحقيق / مجمع اللغة العربية.

٤٥-مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الـــرازي، أبـــو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـــ) تحقيق عبد السلام محمد هـــارون، دار الفكـــر، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م

٤٦-موسوعة الإعجاز العلمي في ســـنة النبـــي ﷺ حمـــدي عبـــد الله الصعيدي.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

Bessesen DH (June ٢٠٠٨). "Update on obesity". J. Clin. Endocrinol. Metab.

Elaine N. Marib (1991) – Essentials Of Human Anatomy&Physiology, (10th Edition),P242

Essentials Of Human Anatomy&Physiology,

Martin A Uman Lightnining Courier Dover Publications1984 .

Martin A Uman, Lightning, Courier Dover Publications ,1984

Schaible UE, Kaufmann SH (2007), "Malnutrition and infection: complex mechanisms and global impacts

Susan Chollar, In the blink of an eye, Psychology Today, March, 1988.

ثالثا: الأبحاث

إعجاز السنة المطهرة في الحديث عن البرق، بقلم عبد الدائم الكحيل، منشور على موقع أسرار الإعجاز العلمي.

الإعجاز العلمي في الحديث النبوي (ما من عام أمطر من عام): شاهر جمال آغا، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مجلة الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٥م.

أنهار الربع الخالي: معجزة للنبي الكريم ، بقلم: عبد الدائم كحيل، موقع أسرار الإعجاز العلمي.